القسم الثاني

غيوفري بلانتغنت

١١٢٨-١١٥٤

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري الجميل من ماتيلدا الامبراطورة المتكبرة، وكان قد لُقب بلانتغنت لأنه وضع قشة مكنسة في قبعته (غنت=مكنسة)، وكان سيصبح بعد قليل كونت أنجو، أما ماتيلدا فكانت ابنة هنري الأول ووريثته المسماة، وكان هنري الأول ملكا لانكلترا ودوقاً لنورماندي، وعندما توفي هنري في سنة ١١٣٥، استولى ابن اخته ستيفن أوف بليوس على المملكة الانكليزية، وتحارب بيتا أنجو وبليوس خلال التسع عشرة سنة المقبلة من أجل السيطرة على انكلترا ونورماندي، وزكزت ماتيلدا جهودها على المملكة، وركز الكونت غيوفري جهوده على الدوقية، وقد أصبح دوق نورماندي في سنة ١١٤٤، وفي سنة ١١٥٣ أجبر الملك ستيفن على القبول بالاعتراف بهنري ابن غيوفري وماتيلدا، ولياً لعهده ووريثاً له في حكم انكلترا ويبدأ القسم الثاني بترجمة غيوفري بلانتغنت، العالية الاطراء والتي كانت في يوم من الأيام منمقة جداً، وكتبت هذه الترجمة في حوالي سنة ١١٧٠ من قبل جون أوف مارموتيير، وهي مليئة بصور للفروسية، وبأفاعيل جريئة، وكانت الغاية منها ارضاء هنري الثاني ابن غيوفري، وأظهر بالمقابل هنري رئيس شمامسة هنتنغدون بالمقارنة قليلاً من التصورات والمواقف السياسية المسبقة، في كتابه «تاريخ الانكليز»، وقد اكتمل سنة ١١٥٤، ووصف في كتابه هذا بشكل حي سمات ستيفن

الحسنة وكذلك السيئة، وبذلك أعاد حكمه إلى الحياة.

من المعروف بشكل جيد لكل انسان أن العرق الأنجيفي قد ازدهر في ظل حكام ذوي معنويات عالية ويحبون الحرب، وقد حكموا الشعب المحيط بهم بالرعب، ولاختلاف حول حقيقة أنهم تولوا جميع أعمال التدمير التي أمكنهم القيام بها والتي عانى منها جيرانهم، وبذلك أخضعوا البلدان التي من حولهم، وبالنسبة لحكام أنجو الذين رأوا أن حكم أنجو لايكفيهم، اعتمدوا وسيلة الحرب للحصول على مناطق تور، وذلك عندما لحقت الهزيمة بأودو صاحب شامبين على يدي الناجح فولك، الذي لقبه «نيرا»، وفي معركة بري Braye هزم الكونت ثيوبولد بن أودو هزيمة ماحقة، وأخذ أسيراً بموجب شريعة الحرب، فمن هذه الجبلة الرائعة من الأمراء جاء غيوفري، الابن الواسع الشهرة لفولك، ملك القدس.

وفي الحقيقة امتلك غيوفري كلّ سمات الشهرة(٧)، وكان جديراً بالمدح والثناء، فكجندي حصل على أعظم الأمجاد، واستفاد مثل ذلك من حظه الحسن، ومما بذله من جهود، وقد أوقف نفسه على الدفاع عن الجماعة ومساعدة الفنون الحرة ورعايتها، وبذل جهوداً كبيرة لأن يحب عن جدارة، وكان شريفا مخلصا لجميع أصدقائه، ولم يكن فقط عظيما في أعين العالم على اتساعه، بل كان موضع ثقة أكثر من البقية، وكانت كلماته دوما جيدة ولطيفة وفيها مداعبة، وكانت مثله موضع اعجاب وقبول، وكان متفوقاً في الجدل حول قضاياه، وامتلك معرفة جيدة حول العصور القديمة، وبما أنه كان مثقفا، كان بإمكانه أن يتذكر تماما ليس فقط ماحدث في موطنه بل أيضا الحروب والأفاعيل في جميع بلدان الخارج.

ولم يكن متميزاً بشكل استثنائي ببراعته في فنون الحرب فقط، بل أعاد بعد تحديات عظيمة إمارته إلى السلام، وشعبه إلى الحياة الهادئة، وكان هذا الرجل جندباً عملاقاً، وكان، كما قلت، الأكثر براعة وذكاء في معاملاته المباشرة، وكان متعلماً بشكل استثناتي، وكريماً نحو الجميع، وطويلا في بنيانه الجسدي، وجذاباً له شعر أحمر، فقد كان الأب لكونتيته وموضع فخارها.

وكان منحمساً حول البراعات العسكرية، شديد التدقيق في عدالته، كما أنه حبي بكل السمات الطيبة والعادات الحسنة، ولم يكن أقل شأناً في أي مجال من المجالات، من أي واحد من الأمراء العظام في أيامه، وكان محبوبا من قبل الجميع مع أنه تحمل كثيرا من المشاكل من رجاله، وحيث أنه كان ذكيا وقوي الأخلاق لم يسمح لنفسه بالفساد عن طريق الغلو أو التراخي في أيام مراهقته، بل أمضى وقته راكباً حول كونتينه، لينجز براعات رائعة، وتحدث عن نفسه قلبلاً، وكذلك عن أعماله، وكسب بهذه الأعمال لنفسه محبة الجميع، وقذف بالرعب في قلوب أعدائه، وكان لطيفاً وكريما، وامتلك نفسا رقيقة، ورحيمة نحو رعيته، وتحمل الإساءات والأذى برباطة جأش، وعندما كان يسمع بنفسه توجيه الاهانات إليه في كثير من المناطق، كان يخفي بصبر ماشعر به، وكان بشكل استثنائي أنيساً ومرحا نحو الجميع، ولاسيما نحو الجنود، هكذا كانت محاسنه وكرمه حتى أن الذين أخضعهم بالقوة، تغلب عليهم بالرحمة حسبما أنا مقبل على روايته في الحكايات التالية

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

عندما أصبح غيوفري في الخامسة عشرة من عمره، أنهى بذلك

طفولتـه، وبات أشبـه بوردة في أول تفتحهـا، وانتشرت أخبار واشـاعات، تبرهن فيما بعد أنها صحيحة بوسـاطة وفرة من البراهين، تحدثت كلها عن طاقـات الشاب في الطـول والعرض، حتى وصلـت أخبار اسمـه وسمعته الشهيرة إلى مسـامـع الملك العظيم والممجـد هنـري الأول ملك انكلترا، وكان الملك على معـرفة واضحة أن أجـداد الشاب كانـوا متميزين، وأنهم نبعوا من جبلـة كريمة قـديمة، وكانوا مستقيمين في عـاداتهم وبارعين في فنـون الحرب، وسمع أن الشاب لم يكن مستثنى من هـذا، بقدر مـاسمح العمر بالحديث، وقرر الملك أن يربط فيما بين ابنتـه الوحيدة ماتيلدا، أرملة الامبراطور هنري الخامس، وبين هذا الرجل الشاب بزواج شرعي.

وبنـاء عليه جـرى ارسال سفـراء فوق العـادة ليتفدمـوا باسم الشـاب غيوفـري بطلب الموافقة مـن أبيه فولك الخامـس، كونت أنجـو، ولإخباره بإرادة الملك، وكـان هـذا الـرجل حكيما ومتيقظـا في كل المسـائل، ولهذا عـامل المندوبين بنشريف، وعن طـواعيـة وعدهم بـالموافقة المؤكـدة على المطلب الملكي، وقـدم العهد وعقـد الميثاق وثبّت ذلك بـالأيمان، مزيـلاً بذلك كـلّ آثار للشك(٨)، ووافق الكونـت، بناء على تعليمات الملك، على ارسال ابنـه، الذي لم يرسم فـارساً بعد، أن يـرسله بشكل رسمي إلى روان في أحد الشعـانين المقبل، من أجل أن يرسم فارسا مع آخـرين من العمر نفسـه، وسط احتفـال ملكي، ولم تكـن هنـاك صعـوبـة في الترتيب لهذا، فالمطلب الحق حظي بالموافقة السهلة.

وهكذا، بنـاء على موافقة أبيه، انطلق الصهـر المقبل لملك انكلترا، نحو روان مع خمسـة بـارونـات هـم: جـاكـولين أوف ميل، وروبـرت أوف سيمبـلانكي، وهـارودين أوف سينت مـارس، وروبرت أوف بلـو، وبـاين أوف كليرفيل، وخمسـة عشر من أبنـاء جيلـه، وذلك بصحبـة كثير من الفرسـان، والاشاعـة دوماً سباقـة، هكذا أعلنت عن وصـول ابن الكونت إلى عنـد الملك، وفرح هنـري الأول بما قيل عن وصـول غيوفـري، وبعث

بعضاً من أعلى النبلاء مكانة لديه بمثابة ممثلين له، وليصطحبوا الرجل الشاب إلى الحضرة الملكية بالحفاوة اللائقة والرعاية، ودخل غيوفري إلى القاعة الملكية محاطاً برجاله وبرجال الملك، مع حشد من الناس العاديين واقفين من حولهم، أما الملك الذي اعتاد ألا يقف لأحد، فقد نهض وذهب لاستقباله وأمسكه بحنان وعانقه بعاطفة، وأعطاه قبلة صغيرة، وكأنه كان ابنه، ثم أمسك غيوفري بيده وأصرّ عليه أن يجلس إلى جانبه، وتحدث الملك حول مختلف الموضوعات مع الرجل الشاب وطرح عليه عدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمة ردات فعله أثناء الحديث الخاص، وأجاب غيوفري بإحكام، لكن كما هي عادة العقلاء زين كلماته ببلاغة معروفة إلى قلة، أما الملك الذي ازداد عمق اعجابه به لحظة تلو الأخرى، فقد سر سروراً عظيماً بحكمة الشاب وبأجوبته، وهكذا مضى اليوم كله بسرور وانشراح.

ومع اقتراب حلول اليوم التالي، استعد غيوفري للحمام الطقوسي، حسبما تطلبت العادة من الرجل الشاب الذي كان على وشك أن يصبح فارساً، وعندما علم الملك من حجابه بأن الأنجيفي والذين جاءوا معه خرجوا من الاغتسال، استدعاهم إلى حضرته، وبعدما طهر الشاب جسده، جرى لف هذا النبيل المنحدر من كونت أنجو بقطع من الكتان الصفيق، ثم وضع عليه ثوباً طقوسياً حيك بالذهب، وارندى فوقه رداء صبغ باللون القرمزي المستخرج من محار المرّيق، وارتدى زوجاً من الأحذية طرزا بأشكال أشبال، أما رفاقه، الذين كان من المتوقع تلقيهم منحة الفروسية، فقد ارتدوا مثله الكتان والقرمز، وتزينوا بشكل بهي حسبما وصفت، وخرج الصهر المستقبلي لملك انكلترا من الغرفة السرية إلى أمام الناس، وكان محاطاً بجمع النبلاء من بلاده، مشرقاً مثل زهرة اللوتس، ومغطى بالأحمر مثل وردة.

وأخرجت الخيول، وجلبت الأسلحة، ووزعت على كلّ واحد حسبما

هـو لائق، وجلب إلى الأنجيفي حصـان اسبـاني، رائع المنظـر والـزينـة، ومشهـوراً أنه يسبق كثيراً مـن الطيور عنـدمـا يعدو، ثم وضـع عليه درعـاً لانظير له، بطانتـه مزدوجة، لايمكن خرقه لابرمح ولابحـربة، ولبس زوجاً من الأحذيـة الحديديـة المدعمة بتسميكتين من الـزرد المقوى، وربط على قدميه مهمازين مـن الذهب، وحمل ترساً مغطى بصـور أسود ذهبية، ودلاه من على رقبتـه، ووضع على رأسـه خـوذة مـرصعـة بكثير مـن الأحجـار الكـريمة، وكـانت عاليـة الجودة بحيث لايمكن تحطيمها بحـد السيف، وأحضر إليه رمح طويل من خشب الدردار ولـه سنان فولاذي، وآخر شيء حمل له سيف من الخزانة الملكيـة، وكان محفوظاً بها منذ زمن بعيـد عندما صنع بعناية من قبل المعلم ويلاند Weyland.

وبعدما تسلح هكذا، انطلق إلى الأمام جندينا الشاب الذي كان زهرة الفروسيـة، واندفع مسرعـاً بشكل متوازن، وبهي في عـدوه، ثم ماذا يمكن أن يقال أكثر؟ وكرّس ذلك اليـوم لمجد وشرف الحملة الأولى، وأوقف كلية على ممارسة الألعاب العسكريـة، ولبلوغ المجد الجسدي، ولمدة لاتقل عن سبعة أيام استمرت احتفالات الحملة الأولى الرائعة للفروسية في البلاط.

ومـرة أخـرى، جـرى ارسـال الـرسـل إلى فـولك الخامس أوف أنجـو، لإعلامه هـذه المرة بوجوب ذهابه إلى لامانس، وأن يكـون هناك بعد مضي ثمانيـة أيام مـن أحد الشعـانين، لـلاحتفال بـزواج ابنـه بشكل لائق، ولم يتأخـر فـولك، بل وافق مسروراً، ووصل حسبما أمـر بأبهة عظيمـة، وكـان موجوداً باليوم المحدد والمكان المقرر.

وانطلق الملك هنـري الأول، ملك انكلترا مـن روان ومعـه ابن فـولك وابنتـه الامبراطـورة (لأنها كـانت زوجـة الامبراطـور) ووصـل أيضـاً إلى لامـانس في اليـوم المحـدد، وتقـاطـر النـاس من جميع الجهـات وتجمعـوا لشهود قـداس الزفـاف، الذي سيتـولى عقده رؤسـاء أساقفـة، وأساقفـة، ورعاة ديرة وكهنة من جميع المراتب.

وهكذا أعطيت ابنة الملك برباط الزواج إلى ابن كونت أنجو، وحصل الأساقفة على موافقة الزوجين المتبادلة على الزواج، لأن كلّ قوة الزواج وفعاليته موجودة في الموافقة، وفي الحقيقة الموافقة هي التي تصنع الزواج، ووافق الاثنان، ووعد كلّ منهما بالاخلاص للآخر، الذي كانوا على وشك زفه، واحتفل بعد ذلك بقداسات مباركة لزواجهما.

وكان هناك سرور وسط رجال الدين، ورقص من قبل الناس، وصرخات شكر من قبل الجميع بلا استثناء، سواء منهم: الأجانب أو المحليين، والأغنياء أو الوسط أو الفقراء، النبلاء أو العامة، والجنود أو الفلاحين، لقد انغمروا جميعاً في سرور عام، وكلّ من لم يهتم بالاحتفال ويشارك به، بلا شك نظر إليه على أنه خائن، وأمضى الرجال والنساء الاحتفال بالزواج في تناول مختلف أنواع الأطعمة، واستمر الاحتفال بالزواج لمدة ثلاثة أسابيع بلا انقطاع، وعندما انتهى لم يغادر أحد من الحضور بدون هدية.

ثم ترك هنري الأول صهره وابنته وودعهما بقبلة سلام، وحول انتباهه نحو مسائل أخرى، وعاد الكونت فولك مع الزوجين إلى أنغر، وعندما كانوا مايزالون على بعض المسافة منها، سارعت المدينة بأسرها للاستعداد لاستقبالهم، وضدرت التعليمات بالزينة، وزينت جدران الكنائس بالتعاليق والأغطية، وخرج رجال الدين في موكب ولاء لاستقبالهم، وهم يرتدون الألبسة الكهنوتية والشارات الطقوسية وبأيديهم الشموع، والكتب، والصلبان، ويغنون التراتيل وأناشيد الحمد، واستقبل السيد الجديد والسيدة من قبل الكهنة والشعب برقصات مهيبة، وعاشا بعد ذلك بهناء، وشرفا جزيرة بريطانيا العظمى والأجزاء البحرية الأخرى بإنتاج وريث رائع [هنري الثاني المستقبلي].

ومنذ أن ارتقى والد غيوفري إلى مملكة القدس حسبما وصفت من قبل، أوقف الكونت الشاب وقته على إجادة استخدام السلاح، والنضال

في سبيل المجد، وقبل مضي وقت طويل جرى تسمية أحد الأيام م أجل مباريات مبارزة بين النورمان والبريتانيين فوق ربوة رملية مناسبة، وجاء إلى مساعدة النورمان ووقف إلى جانبهم: وليم كليتو كونت فلاندرز، وثيوبولد كونت بليوس مع أخيه ستيفن لورد مورتين، الذي سيكون الملك المستقبلي لانكلترا، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء أخت لهنري الأول ملك انكلترا، وقابلهم الكونت وزاد تعدادهم، واصطف الطرفان المتنازلان، ووقف هناك صف البريتانيين، خفيف التسليح، سريع الانتباه، لكن قليل بالعدد.

وعندما رأى غيوفري أن تعداد القوات البريتانية التي تجمعت كان قليلاً، انفصل عن الحشد الكبير وقدم خدماته للبريتانيين، واحتشدت القوات واشتبكت الصفوف بالقتال، وكان هناك قراع كبير بالسلاح، وزعقت البوقات، وترددت أصوات النفير بنغمات كثيرة في حين زمجرت خيولهم بأصوات مختلفة.

ولمع مونت سينت مايكل نفسه بأشعة الشمس التي عكستها ترستهم الذهبية، وكان الرجال كأنهم رجل واحد في المبارزة، وتكسرت رماحهم وتحطمت سيوفهم، وانرضت الأقدام بالأقدام، وانكدمت الأكتاف بالأكتاف، وفرغت ظهور المطايا من شاغليها وألقى بالخيالة أرضاً، وأما الخيول التي رمت بركابها، وقطعت مقاودها، فقد جرت على غير هداية وهي تصهل، وسيطر الرعب على المتصارعين بشكل واضح، وطلب غيوفري خصومه وقاتلهم، وكان يركض إلى الأمام وإلى الخلف، يرمي بالحراب ويلوح بالسيف، وقد حرم أعداداً كبيرة من حياتهم، واستمر البريتانيون يضغطون وكلهم أمل بالنصر، وكان الكونت يشق لهم الطريق ويقودهم، وقد أوقعوا كثيراً من القتلى في صفوف عدوهم، وضغط الأنجيفيون بحدة أعظم من حدة الأسد، وتقدمت صفوف البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق

الإعياء بـالنورمـان نتيجة للصراع الكبير، فأبدوا ظهـورهـم وأخذوا بـالفرار، وهكذا هُـزمت الأكثرية من قبـل الأقلية، وأرغم النورمـان على اللجوء إلى معسكرهم، وهنا عنـدما شعروا بالهلع نتيجة الفوضى غير المتـوقعة اقترحوا على البريتانيين اللجوء إلى المبارزات الفردية.

وعنـدما وصلت أحـاديث المبـارزات إلى مـاوراء البحر، وصل جنـدي سكسوني هائل البنيـة، وقد منحت قوته وجرأته النـورمان الاطمئنان بنيل النصر، وتقـدم هذا الجنـدي من المعسكر النـورمـاني، وكان أطـول من أي انسـان آخـر بشكل واضح جـداً، واتخذ لنفسه مـوقفـاً في مكـان واضح، وتحدى صفـوف البريطانيين في أن يتجـرأوا على تسميـة رجل يستطيع أن يـلاقيـه في مبارزة فـرديـة، وامتقعت وجـوه الـذين أصغـوا إليه وعـلاهـا الاصفرار، وتلاشت القـوة واختفت من صدور الرجال الشجعـان، وخافوا على الانسان الذي سيخرج لمبارزة مثل هذا الوحش الهائل.

وراقب غيـوفـري هـؤلاء الـرجال الشجعـان، وقـد تحولـوا إلى ضعفـاء يصرخون بـالويل والثبور عنـدما كانوا يـدعون شخصياً إلى المبـارزة، وهنا صرخ بشكل مخيف، ورفض تحمل مثل هذا العذاب والاهانة والتحديات التي كـانت تأتي متـوالية، فـامتطى فـرسـه، وحمل سلاحـه، ومضى نحـو النـزال أمام الحشـد الـذي وقف يراقب مـايجري من جميع الجوانب، لقـد توجـه ليبارز ذلك الجندي العملاق، وكـان القتال قاسيـاً، فقد حمل ذلك الانسـان، الذي فـاقت قـواه قوى الانسـان العـادي، رمحاً اسطوانتـه مثل جذع شجـرة، وعندما كان يقـاتل الشاب الأنجيفي خرق تـرس الكونت مع لأمتـه، لكن دون اراقـة كثير من الـدمـاء، غير أن بطلنـا ظلّ ثـابتـاً لم يتزلزل، وكأنه متجـذر على ظهر فرسه، وقام برمي خصمـه بحربة فصرعه، ومن ثم وقف فـوق جثة عـدوه فقطع رأسه بسيفـه، واقتاد فرس الـرجل المهـزوم بيده المنتصرة، وبـاستحواذه لغنيمـة حربـه هذه، جلب العـار إلى النـورمان والفخـار إلى رجالـه، وطار خبر نصره وانتشر في كلّ مكـان، ومن

عادة النبلاء الأشرار أن يغاروا من الرجال المستقيمين، ولهذا قالوا: صحيح أن غيوفري هو صهر الملك، غير أنه لايشعر بالأمان إلاّ بين رجاله حيث لايخشى من الوقوع بالأسر، ولهذا السبب نجد أن الفارس الأصيل والممثل الحقيقي للفروسية طلب الحصول على حلاوة الشهرة، وكان تواقاً للرياضة، لذلك نشد المبارزات في فلاندرز، وناضل في سبيل الحصول على فرص يحقق فيها أعمالاً عظيمة، فقد كان يرغب بالمديح وكان يستحق ذلك.

وكان غيوفري يتمتع بالصيد عندما كان الوقت يسمح له، وكانت هذه الممارسة مفيدة ومتوفرة للبعض وفيها خلاص من الاهتمامات الثقيلة، وتعيد الانسان متحرراً وكأنه ولد من جديد، وهو —فضلاً عن ذلك— مستعد للقيام بالواجب، وكان الصيادون يدخلون إلى الأحراش، ويطلقون كلابهم الذكية حسبما جرت العادات، وكانت الكلاب تتبع أثر الحيوانات بشم بقايا روائحها، وهكذا كانت تعثر عليها بسرعة من الصعب تصديقها، كما كانت تقود الكونت بوساطة عوائها.

وأسرع الكونت هذه المرة ليجتاز الممرات الملتوية والدائرية وليبقى قريباً من كلابه الملاحقة للصيد، وقد تسلق أسرع الطرق، لكن بدون حظ، لأن الحيوان الذي أمل أنه اقترب منه بوساطة كلابه، أرغم على الفرار باتجاه ما، وفي هذا الوقت مع أنه اعتقد أنه مايزال قريباً من مرافقيه أكثر منه من كلابه، كان في الحقيقة بعيداً عنهم كثيراً، وكان تاه اليوم كلّه وأمضاه بحثاً، فلم يعثر لا على رفاقه ولا على كلابه، ولم يرهم في أيّ مكان، وأخيراً، والشمس قاربت على المغيب رأى عن بعد فلاحاً وسط بقعة غير مزروعة، وكان الرجل مغطى بالسخام، وارتدى ثياباً سوداء غطت جسده حتى حقويه، وكانت حرفته ظاهرة مما ارتداه، وكان يشقى في صنع الفحم للصناع، ولهذا السبب كان وجهه وكانت ثيابه كاسبة لهذا اللون.

وعندما رآه غيوفري لم يزدره بحكم كونه رجلاً ثرياً، وله مكانة عالية، بل تصرف تصرف رجل عارف، رجل يعاني من الوحدة، وهكذا ندب سوء الحظ، متذكراً ماقاله ذلك الرجل القديم: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

وحياه غيوفري بكلّ لطف، وسأله: «هل يمكنك أيها الرجل الطيب اخباري عما إذا كنت تعرف الطريق الذي يقود إلى القلعة في لوشي»؟.

ورد عليه الرجل: «لو أنني لاأعرف، لما كان بإمكاني أخذ فحمي إلى هناك دوماً لبيعه».

وقال الكونت: «بناء عليه، خذني أيها الصديق العزيز معك في طريقك إلى الطريق الرئيسي، قبل أن أضيع تماماً في هذا المكان المنعزل وسط الأحراش».

وأجابه الفلاح بقوله: «أنت يامن تمتطي حصاناً لاتعاني من مشكلة اطعام نفسك، وكساء جسدك، لكن إذا توقفت أنا عن العمل سأموت وستموت أسرتي معي».

فأجابه قائلاً: «أرجوك تعال بدون تأخير، وخذني إلى حيث سألت، ذلك أنني سوف أدفع لك ثمن رحلتك».

ثم نظر الرجل إليه بشيء من الريبة، وتمتم قائلاً: «لاأدري أيّ قدر سماوي حلّ بي»، ثم انحنى وقال: «إنني لن أخاف مما سيحل بي، ولسوف أذهب معك، إلى حيث تأمر».

وعانقه الكونت بسرور، وطلب منه أن يركب خلفه فيكون رديفه على حصانه، وتولى الفلاح بكلّ سرور وضع الكونت على الطريق الذي كان يبحث عنه، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وكان طوال الطريق يتأمل تواضع هذا الرجل النبيل، ووداعته الرائعة.

لكن تبع ذلك أشياء أخرى:

فقد افتتح الكونت حواراً لطيفاً مع الفلاح، وكان بين ماسأله عنه: «ماالذي يقوله الناس عن كونتنا؟ أخبرني أيها الصديق الطيب، وكيف يرون النبلاء ويقوّموهم، وماهي مواقف الرأي العام»؟.

وأجابه الرجل الآخر قائلاً: «فيما يتعلق بالكونت، والأشياء التي وقعت في حضوره، لانقول، ولانشعر بأي سوء نحوه، لكن ياسيدي مانعاني منه هو عدد من الأعداء الذين هو ليس على دراية بهم، والأشد سوءاً بينهم، هم الأكثر خفاء وسرية، لأنه ما من عدو من الصعب الاحتراز منه، وهو جاهز للايذاء، مثل العدو الداخلي، ومثل هؤلاء نحن لانتجرأ على مقاومتهم».

وقال الكونت: «لكن هل من الممكن لمولانا الكونت التغلب على آرائهم، أو التخلص منهم»؟.

وأجابه الرجل: «يمكنه أن يفعل العملين، يمكنه فعل ذلك ياسيدي إذا لم تنفذ هذه الأفاعيل الشريرة تحت ستار تقديم الطاعة له».

فقال له الكونت: «أخبرني بعناية أكبر حول هؤلاء الأعداء، وأوضح لي أفاعيلهم الشريرة، فلعلي حينما يحين الوقت، لن أكون صامتاً أمام الكونت». فأجابه:

«ياسيدي إن الذين يتولون ظلمنا هم الكتاب والحجاب والعاملين الآخرين لدى مولانا الكونت، فكلما جاء إلى إحدى قلاعه، يستولي عماله على كثير من البضائع على أساس السلفة أو الدفع فيما بعد، ويأخذون كلّ مايجدونه بدون سؤال أو تسعير، ويظلّ الباعة صامتين، ويغادر الكونت، فيطالب أصحاب الديون بالدفع، وهنا ياسيدي من المؤلم أن أذكر، أنهم إما ينكرون كلية حصولهم على أيّ شيء أو يسوّفون ويؤجلون الدفع حتى يقبل أصحاب الديون بكلّ سرور بنصف مالهم من مال».

ثم قال بطلنا وهو يبتسم للفلاح، ولكن وهو أيضاً يخفي الغضب الذي كان لايمكنه منع نفسه من الشعور به وأنه غذي بشكل وحشي إلى هذه الدرجة: «لكنهم يمتلكون أراضي خصبة للاشيء هؤلاء الرجال الذين اغتصبوا ماهو حق للكونت، وجعلوه يعيش دون أن يدري على السحت، ثم أضاف يقول: سلام، سلام، لكن لاسلام حيث الأرض عيث بها إلى هذه الدرجة من السوء من قبل الأعداء الداخليين».

وأخبره الفلاح: «لكنك ياسيدي لم تسمع كلّ شيء بعد»!.

وقال غيوفري: «أنا سوف أستمع بسرور إلى كلّ شيء، اشرح كلّ شيء بعناية ولطف وعدل، لأنني أحب الكونت، ومن المفترض على أساس صداقتي له، سوف أخبره بكلّ تأكيد بما يفعلونه».

وتابع الفلاح يقول: «لعله بفضل ارادة الرب أن حدث ولقيتك لأسمعك اليوم مالايمكنني شخصياً أن أخبر به الكونت، وهذا لن يخفى عن الكونت بوساطتك، ولهذا استمع ياسيدي، لكن ليس لما هو أسوأ:

بعد جمع المحاصيل، ينطلق وكلاء الكونت إلى القرى، وبالنسبة للقانون الجديد نجدهم يفرضون على كلّ فلاح حصة يحصلونها من محصوله بكلّ عنف، ثم —ومرعب أن نروي— يطلب هؤلاء الرجال جزئاً من ستة عشر من المحصول، أو يطلبون من أحدهم جزئين من ستة عشر، أو من بعضهم أكثر إذا مااستطاعوا التحصيل، وإذا ماصدف واعترض أحد الناس على هذه الفريضة، يجر إلى المحاكمة، ويعذب من قبل أتباع الوكلاء ويحاكم، ويتهم بجرائم مزيفة، وهكذا مامن أحد ينجو من الأيدي الجشعة للقضاة الأشرار، حتى يفلس، ويأسف أن جهوده لم تصمد أمام هؤلاء الذين يحفظون القانون».

وفكر الكونت وردد في قرارة نفسه: «ليلحق الشر بالذي أوجد مثل هذه القوانين»، ثم رفع صوته وهو يقول: «الانتقام هو عملي، وسأنزل

العقاب بهؤلاء قبل مضي وقت طويل»، ثم تابع يقول:

«أخبرني المزيد، ولاتبـق شيئاً لديك، مـاذا لديك أيضـاً لتسمعني عن هؤلاء الرجال المشهورين؟، وهل يعلم الكونت بهذه الأعمال الشريرة»؟.

وأجابه الفلاح: «إنه لأمر مـدهش كيف أنهم استطاعوا ياسيدي اخفاء هذه الأعمال عن مـولانا الكونت، مع أنهم يفعلونها بحضـور الجميع، مالم تكن العادة الـرائجة أن يكـون السادة آخـر من يعلم بما يجري في بيوتهم، وسأضيف حـدثـاً آخـر لما تحدثت عنـه، ثم سأوقف حكـايتي، مـالم أكن أسبب أذى إلى مسامعك اللطيفة»؟.

وقد قال ذلك بنبرة اعتذار ريفية.

ورد عليه غيوفري قائلاً:

«قل ولاتخف أبـــداً، فما من أحـد يتكلـم ببيـان أوضح ممن يتحـــدث بالصدق، ويروي الحقيقة».

وتابع الفلاح حديثه قائلاً:

«عنـدما تسمـع بعض النذر بـاقتراب وقـوع حرب، سـواء أكـان ذلك صحيحاً أو مخترعـاً من قبلهم، يرسل هؤلاء الـوكلاء وقتها رجـالهم للقيام ببذل جهود عظيمة في نشر الاشاعة، ويقومون بوساطة الاعلانات والأوامر العامة التي يذيعها المنـادون بحشد الفلاحين من جميع الأجزاء لملأ القلاع بهم، بحجة تأديـة واجب الحراسة، وبذلك يتركون الأريـاف مهجورة، ثم يقـوم أتباعهم فيبعثـون بشكل سري فيستدعـون بعض الأفراد، ويظهـرون لهم أسفهم لما لحقهم من خسـارة، وكأنهم لايـريـدون سـوى مـواسـاتهم دومـاً، ثم يشجعـون الفلاح للقيـام بشراء أذن بـالعودة من الـوكـلاء عن طريق عرض بعض الهدايا وتقديمهـا بشكل سري، ويعرضون ذلك وكأنه نصيحة جيدة، وكـان بالنسبة لكلّ رجل سمح له بالعـودة عدد آخر، من

الفـلاحين التعسـاء، المثقلين بـالـديـون ولايمتلكـون سـوى دريهمات فيقـرضونها لآخـرين وبذلك يـرغمون على البقـاء بالقـلاع، هؤلاء هم يـا سيـدي الذين تتأثـر الأريـاف بهم بكل مرارة ، والـذي يشقى في السلم مثله في سـوء الحظ مثل الذي يمـوت في الحرب» وأكمل الفلاح حـديثه وقال كل هذا عندما أخذوا يدخلون إلى البلدة.

وينبغي عـدم تجاوز الاشـاعـات التعيسـة التي ازدادت أثنـاء غيـاب الكـونت، ففي بلاطـه سأل كلّ انسـان الآخر عن غيـاب غيوفـري، وأين يمكن أن يكـون، ومامن واحـد أجاب بـأخبار طيبـة، ومع حلول الظـلام تعاظمت أحزانهم كثيراً، وتـوقف الجميع عن الحركة بأعين مرعـوبة محدقة بـالطريق التي اعتـاد أن يعـود عبرها من الغـابـة، وفجأة وصل الشخص الذي طـال انتظاره، وقـام بسرور بتقديم التحيـة لأول رجل التقاه، حسبما كـانت عادتـه، ولـدى ملاحظـة ذلك الـرجل صوت الكـونت لم يستطع اجابـة تحيته لسروره، ولأنه ركض أمامـه وهو يصرخ بكلّ ماأوتيـه من قوة بأن الكونت قد عاد، وكان يشير إليه.

ثم لاحظ الفلاح وعرف الشخصية التي كـان يقودها ويتحادث معها، فاقتنع أنـه لم يعد بإمكـانه البقاء رديفـاً للكونت، وهكـذا حاول فجأة أن يقفز نحو الأرض، وأدرك الكـونت مايجري وتنبه له فأمسـك به وهو يحاول النزول، وقال وهو يبتسم:

«هل يتـوجب عليّ هكـذا العمل للتخلص من الـدليل الـذي تمكنت بمسـاعدتـه من العودة إلى شعبي؟ إن هـذا لن يكون»، والجماهير تتـدفق حوله من كلّ جانب، حمل الفلاح ووضع عاليا على ظهر حصان الكونت سواء أراد ذلك أم لم يرده.

وجاء وقت المائدة، وكـان الفلاح قد غير مـلابسه وارتدى ثيابـاً فخمة زوده بها الكونت، وجلس الفـلاح وسط الرجال القياديين لـدى الكونت،

وجرى تكريم الفلاح وتبجيله بتقديم أفخر الصحون له، لقد تناول الفلاح طعامه بآنية ذهبية، أما المغامرة التي واجهها الكونت فقد تولى روايتها الفلاح وكذلك الكونت.

وعندما عاد الكونت من القداس في اليوم التالي، أمر باحضار دليله، وخاطبه قائلاً:

لقد حررتك وحررت ورثتك من جميع الضرائب والخدمات، وأمرت بأن تكون رجلاً حراً، حراً في كلّ مجال، وبناء عليه عد إلى أسرتك ومارس الحياة الهينة التي ترغب بها، وما ان أنهى خطابه حتى أمر بمرافقة الرجل إلى حيث كان يقيم.

وبات الكونت متفوقاً على الجميع لأنه جعل واجبه حماية الضعفاء، وسأعرض الآن أمامك مثلاً عن الطريقة التي عرف بها كيف يخضع الأقوياء.

وكان الكونت ثيوبولد الثاني صاحب بليوس وشامبين رجلاً مشهوراً، وكان من أغنى الفرنسيين في أيامه، وكان مستقيماً تماماً وخالياً من اللوم، وفي داخل دويلته كان وليم كونت نافار وهيو صاحب كوسني Cosne ، الذي يعرف بلقب مانسيو Manceau في خصام دائم فيما بينهما، مع أن ثيوبولد كان يدعوهما دوماً، ويعرض خلافاتهما أمام محكمته، وأخيراً قام ذلك الشرير صاحب نافار، الذي فضل أن يهزم عدوه بالقوة وليس باللجوء إلى القانون، بالفرار من بلاط ثيوبولد.

كان في تلك الأثناء لويس السادس ملك فرنسا يسعى بهدوء نحو تمتين سلطانه بتوجيه من سوكر راعي دير سانت دينس(٩).

وفي خلال الصراع الطويل والمستمر الذي تلا ذلك طلب كونت نافار

مساعدة ملك فرنسا لويس السادس مع مساعدة أسقف أوتون Autun وساق هـذان الرجـلان جيّشين عظيمين وزحفا إلى جـانبه، ذلـك أنه أراد محق عـدوه تمامـاً، وعلى هـذا الأسـاس حشـد الملك والأسقف والكـونت جيوشهم الثـلاثة وحـاصروا هيو في القلعـة التي اسمها كـوسني، ولم يعد أمامه أدنى أمل بالنجاة، طالما أن القـوات طوقته من كلّ جانب، ولم يعد أحد يتمكـن من الدخـول إلى القلعة أو مغـادرتها، وفي حالة اليـأس هذه بعث مانسيو بـرسل إلى الكونت ثيوبولـد ليشرح له المأزق الصعب الذي هو فيـه وليطلب المساعدة، وبدون تـأخير، لوجود خطر كبير بـالتأخير، أمر ذلك الانسـان الجيـد رجـالـه بـالـذهـاب إلى هنـاك، وطلب من جيرانـه وحلفـائه المساعـدة أيضاً، ونشـد بين هؤلاء مسـاعدة غيـوفري صـاحب أنجو، وكان واثقـاً من قدومها، لأنه اعتمد اعتماداً كلياً على مسـاعدة هذا الكونت، ولم يتقاعس بطلنـا، فقد كان دوماً سريعاً جـداً في تقديم العون إلى أصـدقائه، وإذا مـا وعد بتقـديم قـوة كان يفي بتعهـداتـه لأنه كـان صادقاً.

وحشـد غيوفـري كـوكبـة تألفت من مـائة وأربعين فارسـاً من النخبـة والمسلحين بشكل جيـد، وأرفقهم بثـلاثمائه مـن قـوات الاحتيـاط وبـادر مسرعاً بـالتقدم، ووحـد قواتـه مع قوات ثيـوبولـد، وزحف الرجـلان معاً لانقاذ مانسيو المحاصر، لكن أخبـار قرب وصولهما طارت أمامهما ووصلت إلى مسـامع ملك فـرنسا، الـذي قـام بعقلانيـة وحكمـة بـازالة معسكـره والتخلي عن الحصار.

وجعلت كراهية الأعداء كونت نـافار يتأخر ويتقاعس عن الفرار بعض الـوقت، وتـولى على كلّ حـال الكـونت غيـوفري مطـاردتـه، بينما تعـامل الكونت ثيوبولد مع الذين بقـوا، ثم ما كان عليك سوى أن ترى غيوفري النبيل ومعه رفاقه الشرفاء، وهو يحمل تـرسه المزين بصورة أسد، مع أنه في الحقيقـة لم يكن أقل شجاعـة أو حدة مـن الأسد، وطـارد الفارين وكأنـه

صاعقة عسكرية، أو توجه لمساعدة رفاقه، فاستطاع أن يفتك بسيفه ببعض الفارين، أو يلقي ببعضهم الآخر أرضاً وهم مصابين، فما من واحد من الهاربين نجا دون اصابة بجراحة.

ثم ماهو المزيد؟ فعندما مات كثيرون، وفرّ أكثر، أخذ غيوفري كونت نافار نفسه أسيراً، وسلمه مكتوفاً إلى الكونت ثيوبولد.

تميز كونتناغيوفري آنئذ بهذه الفضائل السامية وبتماسك الذات، فقد كان بإمكانه بلحظة واحدة أن يكون انسانياً ورحيماً ولطيفاً ومستقيماً، ثم قوياً شجاعاً متحمساً، فهكذا كان بإمكانه حقاً أن يحافظ على الضعفاء، ويخضع الأقوياء.

كان في الوقت نفسه فولك صاحب أنجو، وملك القدس يصطرع في الأراضي المقدسة ضد القوى المتنامية للمسلمين بقيادة زنكي، الذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧، ولقد أوحت نجاحات زنكي المتوالية أن القدس ربما تسقط، لولا أن بادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر كلّ من أمير دمشق وامبراطور القسطنطينية إلى مساعدة فولك. وفي سنة١١٣٦، استدعى فولك ريموند أوف بواتيه، وهو الابن الوسيم والقادر للدوق وليم التاسع صاحب أكوتين، إلى فلسطين، وجعله خطيباً لأميرة أنطاكية كونستانس التي كانت في التاسعة من عمرها، وكان هذا عملاً استراتيجياً هاماً اعتمدت عليه مملكة القدس، فقد توفرت الحاجة إلى ريموند لتقديم المساعدة لفولك في دفاعه عن الأراضي المقدسة.

بعد مرور عدة سنوات، وبينما كان الكونت غيوفري ينعم بالازدهار، شن روبرت أوف سابل Sable مع حلفائه الحرب ضد غيوفري.

*يتولى الآن يوحنا أوف مارموتيير **Marmoutier** بالتفصيل وصف الحملات الكثيرة التي قام بها غيوفري ضد أصحاب قلاعه العصاة، الذين كان بينهم سادة سابل.*

صار روبرت صاحب سابل بارونـاً لجميع المنطقة بوساطة أيمان فاسدة أداهـا له رفـاقـه، حتى إلياس، الـذي كـان آنذاك كـونت مين Maine وهـو أخو كـونت أنجـو، تأثـر بنصائح الـرجـال الشريريـن فقاتل أخـاه، وعنـدما أسر غيـوفري إليـاس، أبقـاه في السجن لأيام كثيرة في تـور، لكن بعدما أطلق سراحـه منه، توفي هذا الشاب، بسبب اصـابته بمرض خطير وهو في السجن.

وأمسك في الوقت نفسـه غيوفري بـالفرصة التي تـوفرت له، فقـام بعد استشـارته لـرجـاله، بـدخول أراضي أعـدائه، مقـدراً أنه من الحكمـة أن يهاجم في أراضيهم، بدلاً من أن يـدعهم يتولون مهـاجمته، وبناء عليـه قام الكونت نفسـه وبصحبته نخبة من فرسـانه مع أعداد كبيرة من الرجـالة، بـالزحف ضـد أولئك النـاس العصـاة والمعادين لـه، وأرغمهم فـوراً على الفرار، وكـذلك أرغم مشاتهم على الهرب، وهنـا خرج رجال روبـرت ضد الكـونت، وهنـا تمنع عن القتـال مواجهـة، ذلك أن قـوات سـابل غيرت أوضاعهـا لدى اقترابه وأقامت عـدداً من الكمائن، وهنا رأى غيوفـري أنه بات من الضروري بالنسبة له أن يعدّ قـواته من أجل القتال، فاستطاع ردّ روبرت أوف سـابل إلى داخل القلعة، وذلك بعدما عـرّض عدداً كبيراً من رجـالـه للموت أو الاصـابـة بجـراح أو السقـوط بـالأسر، وإثر هـذا قـام الكونت المنتصر بالعودة إلى مكانه.

سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف

بعد مضي أربع سنين على الزواج السالف الذكر [بين غيوفري وماتيلدا] ولد هنري الابن الأول للكونت غيوفري، وهو سيكون هنري الثاني الملك المستقبلي لانكلترا، وفي السنة الخامسة ولد غيوفري، وفي السنة السادسة جاء وليم.

سنة خمس وثلاثين ومائة وألف

في سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، وفي اليوم الأول من كانون الأول توفي هنري الأول ملك انكلترا،وكان عمره سبع وسبعين سنة تماماً، وجاء موته بعدما أمضى بالحكم خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وحدثت الوفاة في روان Rouen في مكان يحمل اسم ليون —لى— فورت Lyons-La-Foret واحتفظ النورمان بأحشائه، وحمل الانكليز بقية الجسد إلى قبر في دير في ردنغ.

وإثر وفاة الملك هنري اعتلى العرش بشكل غير شرعي ستيفن، كونت مورتين Mortain ، وكان أخاً لثيوبولد الثاني، كونت بليوس وشامبين، وابن أخت للملك المتوفى، وتتوج ملكاً في انكلترا.

ودخل في تلك السنة غيوفري صاحب أنجو، ومعه رجال منتخبين، إلى نورماندي، عازماً على الاستيلاء عليها، لأنها ميراث لابنه.

وفي الوقت نفسه عبرت الامبراطورة ماتيلدا البحر، وبصحبتها كوكبة من الفرسان، ومع أنها امرأة، هاجمت بكلّ قوة ورجولة الانكليز، مصرة على أن ميراثها الشرعي سوف تحصل عليه بقوة السَلاح، وانتشرت الأخبار

بسرعة، ووصلت إلى مسامع الملك ستيفن، وأعلنت أن المملكة باتت في خطر، لأن الامبراطورة أخضعت بالقوة كثيراً من الانكليز، وأعداد كبيرة منهم استسلمت لها على الفور، وأنه مالم يبادر بالعودة مسرعاً إلى انكلترا سوف يفقد تاج المملكة، وقام الملك المرغم بالأخبار السيئة بالابحار مع أكبر عدد من الرجال الذين توفروا له من حشود عساكره.

ثم أعطانا يوحنا أوف مارموتيير رواية مثالية عن احتلال غيوفري لنورماندي [١١٤٢-١١٤٤] تدلل —بشكل غير صحيح— أن تقدم الكونت قوبل بحماس أعظم من العدوانية في الدوقية.

ثم إن الكونت النشيط القوي، أدرك في حربه وصراعه ضد الجيش المحشود من قبل ستيفن وتأكد أن الرب سيقاتل إلى جانبه ضدّ قلاع الملك غير التقي، ولدى معرفته بأخبار تراجع الملك، لم يضع فرصة تقدمه في تلك الساعة، بل تابع زحفه نحو الأمام، فدخل إلى البلاد، وحاصر مورتين، وأخذ رهائن وتأمينات، واستقبل السكان بسلام، وحكمهم بشكل انساني، وحافظ على ممتلكاتهم دون أن تتعرض للأذى من الجيش.

ثم نقل الكونت جيشه، وجاء إلى كيرنتان Carentan ، وبعدما تسلم هذا الموقع بدون قتال، بادر مسرعاً إلى مدينة بيو Bayeu ولدى سماع السكان والأسقف باقترابه، خرجوا بسلام وهم يبدون سرورهم، وتقبلوه وتقبلوا سلطته، وقدموا له الولاء وأقسموا متعهدين بمساعدته ضد جميع أعدائه.

وتحرك الكونت من بيو، وأخذ طريقه نحو سينت لو، حيث كان أسقف كاوتنس Cautances المسيطر على الموقع، قد تولى تحصين الموقع ضده، وكان عدد الجند في داخله حوالي المائتين، وقد خرجوا لانشاب القتال ضد الكونت، وقد أرغموا مع أول اصطدام على الفرار عائدين إلى البلدة، وصمدوا فقط في اليوم الأول والثاني، واستسلموا في

اليـوم الثالث وفتح المدافعـون الأبواب، وطلبـوا السلام، وقـدموا رهـائن، وأقسموا على تأدية الولاء، وعلى الطاعة للكونت(١٠).

ثم قصـد مـدينة كـاوتنس ووصلهـا، وهي مـدينـة واقعة في مقـاطعـة كوتنتـن، ودخل الكونت إلى هـذا الموقع، واستولى عليـه بلا مقـاومة (لأن الأسقف كان بعيداً)، وكـان مشحوناً بالقـوات والعتاد، ثم جمع بعد ذلك بارونـات مقاطعـة كوتنتن، وطلب تقـديم الـرهائن منهم، وجـاءوا جميعاً، وأدوا الخدمـات المطلـوبة، بـاستثنـاء رالف مع أخيـه رتشـارد دي لى هي Haye ، وقام الأول بتحصين قلاعه ضـد الكونت، بينما تمركز الآخر مع قـوة كبيرة من الجنـد فيهـا مـائتين أو أكثـر من العسـاكـر، في شيربـورغ Cherbourg ، حيث ظن أن بإمكـانـه هنـاك امتـلاك القـدرة على الصمود في وجه الكونت، غير أن الكـونت، صاحب القلب العظيم، تولى أولاً العيث فساداً في منطقة رالف، وحـاصر قلاعه، ثم تمكن بوسـاطة قوة عسكريـة من أسر رالف نفسـه، ولقد تأخر رالـف كثيراً في تقديم التـوبة، وذلك بعـدمـا تـولى قتال الآخـرين، لـذلك تقبل بهدوء الـوقـوع بـالأسر والخضوع.

وزحف غيـوفري الآن إلى شيربـورغ، وذلك بعـدمـا قام بتنظيم الجنـود الـذين رافقـوه، وأعد بكل بـراعـة وحـرص آلات الحصار، وبـذلك كـان جاهـزاً باستعـداداته الحربية، وكـان يوليـوس قيصر قد شيـد في شيربورغ حصنـاً، وذلك أثناء استعـداده لغزو بـريطـانيا، وقـد أحاط هـذا الحصن أسـوار على درجة عـالية من القـوة، وأقيمت أبـراج كثيرة في اطار السـور، حتى بـات من المتعذر أن يستطيع جنـدي غرس رمحه بينهم، وأقـام برجـاً أعلى من الأبراج الباقيـة وسط التحصينات، وشيد قاعـة ملكية، وإلى هذا الحصن فـرّ بعد أول هجـوم قام بـه ضد بـريتاني، وأطلقت لـذلك بعض الروايات العادية اسم قلعة قيصر على هذا الحصن.

وبعـدمـا احتل رتشـارد دي لى هي هـذا الموقع، شحنـه بـالفـرسـان

والجنـود، والـرجـال المسلحين مع كميـة كبيرة من المؤن والعتـاد، ثم حرضهم على مقاومة غيوفري بكل ثبات [ذلك أن رتشارد قرر عبور البحر والذهاب إلى الملك ستيفن، على أمل أن يعود من عنـده وهو يقود قوة من الجند، يـرغم فيها الكونت غيـوفري على الفرار وذلك بعد رفعـه للحصار] وفي الوقت نفسه تابع الذين كانـوا في الحصن مقاومة الكونت، معتمدين ليس فقط على شجـاعتهم وعلى المخـزون العظيم من المؤن الـذي خـزنـه الطاغيـة رتشارد دي لى هي هنـاك، بل أيضـاً على دفاعات الأبـراج التي لاترام، وقـد قذفـوا المهاجمين بـالحراب الحربية، وبـالشتائم المقـذعة، ورد عليهم المهاجمون كلّ رماية برمية، لكن ليس كلّ كلمة بكلمة، غير راغبين في أن تكون ردودهم فارغة، وقاتل الـرب الذي بيده جميع القوى والممالك لصالح الكونت، فصـد أعداءه، وأنجح مقاصده، ذلك أنه عنـدما أبحر رتشارد دي لى هي، وقع بأسر القرصان الذين حملوه إلى أراض أجنبية.

وحملت الأخبار غير المفرحة إلى الذين كـانوا يقاومون الكونت، واربدت وجـوه المحـاصرين وعـلاهـا الحزن، وتهاوى أملهم المهـزوز، ولم يعـد في مقدورهم سوى التفكير بالفـرار، ولم يجدوا أمامهم منفذاً لفعل ذلك، ولهذا سلمـوا الحصن القوي المشحـون بالمؤن، وأعلنـوا عن رغبتهم بالاستسـلام لسلطـة الكـونت ووضع أنفسهـم تحت تصرفـه، وتعهـدوا بأيمان مغلظـة بالـولاء له، وإثـر تنفيذ هـذه الأعمال، قدر الكـونت أن حلول الشتـاء قد اقترب، وبعدما أخذ ما أخذه من القلعة أذن لجنده بالانصراف.

واستمـر الصراع طـويـلاً فيما بين ستيفن، الملك المزيف، وغيـوفـري كونت أنجـو، وكان شأن غيـوفري يـزداد علواً دوماً وهـو يزداد نشـاطاً في نفسه، بينما كان ستيفن يضعف يومياً.

واعتاد الملـوك والأمراء التـوجه إلى الحرب بعـد انقضاء الشتـاء القاسي والعاصف، وعندما تبدأ رائحـة الربيع الدافئة تملأ الهواء، وتتحول البراعم إلى زهور، وعندما تغـدو حدائق الورود تعج بالورود الجديدة بعـدما كانت

قبل قليل جرداء، وعندما تأخذ أزهار الليلك البيضاء تتمايل أمام الأعين...

يرسم هنري أوف هنتنغدون Huntingdon صورة مختلفة تماماً حول الصراع بين أسرتي بليوس وأنجو في سبيل السيطرة على نورماندي وانكلترا والتحكم بهما، ولم يكتف المؤرخ في اظهار بعض التعاطف —المحق— نحو ستيفن، بل نظر إلى حوادث حكمه وتفحصها في الاطار الانكليزي —والسكوتلندي— تماماً، وسيظهر هذا على الفور في وصفه لموت هنري الأول، ووصول ستيفن إلى العرش في سنة١١٣٥.

إثر وفاة الملك هنري الكبير (١١٣٥) تناول الشعب البحث بحرية حول أخلاقه، وذلك حسب العادة ، بعد وفاة الناس، فقد أصر بعضهم واتفقوا على أنه كان متميزاً تماماً بثلاث مواهب، وكانت هذه:

حكمته العظيمة، لأن آراءه كانت عميقة، وكانت بصيرته نافذة، ولفصاحته الآسرة ولنجاحه بالحرب، فبالاضافة إلى كثير من النجاحات والانجازات، كان هو المنتصر على ملك فرنسا [لويس السادس]، ولثرائه، الذي فاق به جميع سلفه من الملوك، واتخذ آخرون —على كلّ حال— مواقف مخالفة، وعزوا إليه ثلاثة معائب: فبالنسبة لثرائه، صحيح أنه كان عظيم الثراء بالمقارنة مع أجداده، إنه أفقر الناس بالضرائب والمكوس، وأرهقهم بالمتاعب على اختلاف أنواعها، وكان بلا رحمة، وفي هذا المجال اقتلع عيني قريبه، كونت مورتين الذي كان لديه أسيراً، علماً بأن هذه الفعلة الشنيعة والمرعبة لم تكن معروفة، وكشفت بعد وفاته مع أسراره، وقد ورد ذكر أمور أخرى وحوادث، أنا لن أقول عنها شيئاً، وكان شبقاً، ذلك أنه كان مثله مثل الملك سليمان مستعبداً من قبل الاغراء الجنسي النسائي، وكانت الأخبار منتشرة من حوله ومتداولة، لكن كلّ مافعله

الملك هنري سواء بالطغيان أو عدلاً كملك يبدو رائعاً بالمقارنة مع الأيام المقبلة بعده التي ألهبت الأمور بوساطة عنف النورمان.

فقد جاء ستيفن بكلّ سرعة، وهو الأخ الأصغر لثيوبولد كونت بليوس، وكان صاحب عزيمة، ورجلاً جريئاً، لم يقم اعتباراً ليمين ولائه لماتيلدا ابنة هنري، جاء متحدياً الرب بالاستيلاء على عرش انكلترا بجرأة ووقاحة، وكرس وليم رئيس أساقفة كانتربري الملك الجديد، مع أنه كان أول من أقسم يمين الولاء لماتيلدا، ولهذا يالـلأسف زاره الرب ومعه الحكم نفسه الذي أوقع على الرجل الذي ضرب أرميا، الراهب الكبير، فمات خلال العام، وكذلك حدث لروجر الأسقف القوي لسالسبري، وكان قد أدى يمين الولاء نفسه، والآن أقنع الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، وصرف جميع قواه في سبيل رفع ستيفن إلى العرش، وتعرض هو أيضاً لحكم الرب العادل، فألقي بعد أمد في السجن، وواجه نهاية مؤلمة، أوقعها عليه الملك نفسه الذي ساعد على صنعه.

وباختصار حوّل جميع الايرلات والبارونات الذين قد أدوا يمين التبعية لماتيلدا، ولاءهم إلى ستيفن وقدموا له فروض الطاعة، ولقد كان فألاً سيئاً أن تقوم انكلترا كلها بسرعة، وبدون تردد أو صراع، وبلحظة مثل طرفة عين، فتخضع لستيفن، وبعدما جرى تتويجه عقد بلاطه في لندن.

سنة ست وثلاثين ومائة وألف

وجاء الملك ستيفن في السنة الأولى من حكمه إلى أكسفورد، فأخبر أن داود ملك السكوتلنديين، تظاهر بأنه قادم لزيارته زيارة صداقة، فزحف إلى كارت ايل ونيوكاسل، واستولى عليهما مخادعة، ورد الملك على الرسول الذي حمل إليه الأخبار: إن ماحصل عليه بالمخادعة سأرغمه على التخلي

عنـه، وبنـاء عليه حشـد الملك ستيفن على الفـور أعظم جيش حشـد في انكلترا عرفه الناس حتى الآن، وقـاده ضد الملك داود، ولقد التقيا في دور هام، وهناك تصالح ملك السكوتلنـديين مع ستيفن وسلمه نيوكاسل غير أنـه احتفظ بكـارايل وذلك بمـوافقـة من ستيفن، ولم يقـدم الملك داود الـولاء للملك ستيفن، لأنـه كـان أول الناس من غير رجـال الـدين، قـد أقسم يمين الولاء لابنـة الملك المتوفى، التي كانت ابنة أختـه، وقد اعترف بها ملكـة على انكلترا بعد وفـاة أبيها، لكن الملك هنـري ابن الملك داود، قدم الولاء لستيفن، وأعطاه ستيفن بالاضافة لما تقدم بلدة هنتنغدون.

وبعد عـودة الملك ستيفن من الشمال، عقد بلاطه خـلال عيد الفصح في لندن، بطريقة أروع ممـا عرف قط من قبل، ليس فقط بعدد الحضور بل بما جرى عـرضه من روائع من ذهب وفضـة وجواهر، وثيـاب ثمينة، وكلّ شيء كان فائقاً.

سنة سبع وثلاثين ومائة وألف

في السنـة الثـانيـة من حكمـه، أمضـى الملك ستيفن عيـد الميـلاد في دنستيبل Dunstable ، وفي الصوم الكبير أبحر إلى نـورماندي، وعبر معـه الاسكندر أسقف لنكـولن وعـدد كبير آخر من النبـلاء، ونجح الملك هنـاك بفضل خبرتـه بـالحرب في جميع ماقـام بـه، وأحبط خطط أعـدائه، وهـدم قلاعهم وحصل على أعلى المفـاخر والأمجاد، وأقـام سلماً مع الملك الفرنسي، الذي قدم ابنه يوستـاس الولاء له من أجل نورماندي، التي هي اقطاع تابع للتاج الفرنسي.

وكان غيوفـري كونت أنجو العدو اللدود للملك ستيفن، لأنـه كان قد تزوج ماتيلدا ابنة الملك هنـري، وهي التي كانت امبراطورة ألمانيا، وكانت

قد تلقت أيمان التبعية بالنسبة لمملكة انكلترا، وبناء عليه ادعى الزوج والزوجة بحقهما بالعرش الانكليزي، لكنه وقد رأى أنه في الوقت الحاضر لايستطيع التقدم بنجاح ضد الملك ستيفن، بحكم امتلاكه لقوات لاتحصى مع كميات هائلة من المال وجدها في خزائن الملك المتوفى، ولهذا تصالح كونت أنجو مع الملك ستيفن، وبناء عليه وبعدما حقق النجاحات عاد الملك إلى انكلترا منتصراً، وكانت عودته عشية عيد الميلاد.

وكانت السنتان الأوليتان من حكم الملك ستيفن سعيدتان، لأن السنة التالية التي أنا مقبل الآن للحديث عنها كانت عادية وموائمة، لكن السنتان الأخيرتان كانتا مدمرتان ويائستان.

سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف

ذهب الملك ستيفن (١١)، في السنة الثالثة من حكمه، بنشاطه المعتاد، مسرعاً نحو بدفورد Bedford ، وحاصرها عشية يوم الميلاد، وشدد الحصار خلال مدة العيد كلها، مما أغضب الرب بقدر ماجعل ذلك الموسم ضئيلاً أو بلا قيمة.

وبعد استسلام بدفورد، قاد قواته داخل اسكوتلندا، ذلك أن الملك داود، قام نتيجة لليمين الذي أداه لصالح ماتيلدا ابنة الملك هنري، وتحت غطاء ديني، فجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحبالى، وبقروا بطونهن لاخراج الأطفال الذين لم يلدوا بعد، ورموا بالأطفال وأرجحوهم على أسنة رماحهم، وذبحوا رجال الدين عند المذابح، وقطعوا رؤوس تماثيل الصلب، ووضعوهم على أجساد الذين ذبحوهم، وبالمقابل وضعوا رؤوس ضحاياهم فوق

التماثيل، وحيثما حل السكوتلنديون أو جاءوا كانت هناك المناظر نفسها من الرعب والوحشية: نساء يولولن، شيوخ يندبون وسط الذين يموتون من الآلام واليائسين من الحياة، ولهذا غزا الملك ستيفن اسكوتلندا وسلط السيف والنار على الأجزاء الجنوبية من ممتلكات الملك داود، الذي لم يتجرأ على التصدي له.

اتخذ الكاتب المجهول، لكن المعاصر الذي كتب أعمال ستيفن، موقفاً أقل حدة ونقداً تجاه السكوتلنديين.

كان ملك اسكوتلندا، الذي تحد بلاده انكلترا، حيث يفصل نهر بينهما، عظيم المشاعر الانسانية، وقد ولد لأبوين متدينين، ولم يبتعد عن فضائلهما وتقواهما، وكان مع مجموعة من الرجال العظماء، لابل في الحقيقة كان الأول بينهم، أدى يمين الولاء لماتيلدا، ابنة الملك هنري، في حضوره ولهذا غضب غضباً شديداً لأن ستيفن اغتصب تاج انكلترا، لكن بما أن ستيفن استقر بالملك بوساطة البارونات بدون حضوره وموافقته، فقد جلس بكل حكمة ينتظر النتيجة، ويراقب مجرى الأحداث.

وأخيراً استلم رسائل من ماتيلدا، تتشكى فيها بأنها حرمت من وصية أبيها، وسرق منها التاج الذي تمت ضمانته لها ولزوجها بأيمان مغلظة، فقد أزيحت الشريعة ورميت جانباً وديس على العدالة بالأقدام، وأيمان التبعية لها التي أقسمها البارونات الانكليز قد خرقت ولم يقم لها وزن، وباخلاص وأسف طلبت منه بحكم قرابته منها أن يعمل على ضمان حاجتها، وأيضاً بحكم كونه تابعاً شرعياً لها أن يقوم بمساعدتها في وقت ضيقها.

وشعر ملك اسكوتلندا بحزن عميق، وتعاظم غضبه من أجل المطلب الحق، وروابط الدم، وتقديراً ليمينه قرر القيام بغارة يخرق بها انكلترا،

اعتقاداً منه انه بقيامه بهذا يمكنه بمعونة الرب أن يرغم ستيفن على التخلي عن الحكم لصالح المالكة الشرعية للتاج، التاج الذي وضح له أنه تمّ الاستيلاء عليه بصورة غير عادلة، واعتنى ملك السكوتلنديين في بلاطه بالمنفيين الانكليز الذين حرضوه باستمرار لاتخاذ هذه الاجراءات، ولهذا قام الملك داود —لأن هذا كان اسمه— فنشر مرسوماً في جميع أرجاء اسكوتلندا يدعو فيه شعبه إلى حمل السلاح، وتغيير مجرى حياته، ومن ثم المبادرة للاقلاع بهجوم عاصف ومدمر هائل ضد الشعب الانكليزي.

وتدعى اسكوتلندا أيضاً ألباني Albany ، وهي بلاد مغطاة بمروج واسعة، وفيها غابات مزدهرة مع المراعي التي تطعم قطعان كبيرة من الأبقار والثيران، وفيها موانىء آمنة، وهي محاطة بجزر خصبة، والسكان المحليون متوحشون، وعاداتهم غير نظيفة، لكنهم غير معاقين بالبرد الشديد، ولايعانون من العوز الكبير، سرعتهم كبيرة على أقدامهم وأسلحتهم خفيفة، ويتخذ منهم جند شجعان ذوي فعالية، وهم بين أنفسهم لايعرفون الخوف ولايبالون بالموت، ووحشيتهم بين الغرباء عنيفة ويبيعون نفوسهم بأثمان عالية.

ونعود الآن إلى حكاية هنري أوف هنتنغدون

ظهرت الخيانة الانكليزية وتجلت بشكل واضح بعد فصح ١١٣٨، فقد قام تالبوت Talbot، الذي كان واحداً من الثوار بالاستيلاء على إحدى القلاع في ويلز، وأعلن العصيان بها ضد الملك ستيفن، غير أنه حاصرها واستولى عليها، وتحصن الايرل روبرت أوف غلوستر، وهو ابن طبيعي للملك هنري الأول في قلعة برستول المنيعة وفي قلعة ليدز، واستولى وليم فتز ألان Fitz Alan على قلعة شروبري، التي اقتحمها

الملك أخيراً، وشنق عدداً من الأسرى.

وفيما كان الملك مشغولاً على هذه الصورة في الجنوب، قاد داود صاحب اسكوتلندا ثانية جيشاً كبيراً إلى الشمال من انكلترا، وقد عارضه بشدة وقاومه نبلاء الشمال تحت قيادة ثيرستان Thurstan رئيس أساقفة يورك، ونصب العلم الملكي في نورثألرتون Northallerton ، وحيث أن رئيس الأساقفة منعه المرض من حضور المعركة، فقد فوض إلى رالف أسقف أوركني Orkney أن يشغل مكانه، ووقف رالف على ربوة صغيرة في وسط الجيش، ورفع من معنويات النبلاء الانكليز بخطاب ألقاه عليهم.

ثم صرخ الانكليز رادين عليه بصوت واحد رددت صداه الجبال والتلال قائلين «آمين، آمين»، وإثر هذا وفي الوقت نفسه ردد السكوتلنديون صيحات حربهم «ألبان، ألبان»، حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم اختفت الأصوات وسط قعقعة السلاح.

وفي الحملة الأولى نال رجال لوثيان Lothian شرف توجيه الضربة الأولى، فوجهوا نحو الفرسان الانكليز الدارعين زخات من النشاب، وذلك دون أذن من ملك السكوتلنديين، غير أنهم وجدوا الصفوف الانكليزية منيعة لايمكن خرقها مثل جدار من الفولاذ، واختلط النبالة الانكليز بالفرسان وتوزعوا بينهم، وفيما هم كذلك أصابوا السكوتلنديين غير المسلحين برماياتهم المتوالية، ووقف الجيش الانكليزي بأجمعه مع النورمانديين متماسكاً حول العلم في كتلة متراصة قوية.

ثم سقط مقدم رجال لوثيان نتيجة اصابتة بنشابة، وأدى هذا إلى فرار جميع أتباعه، لأن الرب القادر كان غاضباً عليهم، وهكذا تحولت قوتهم وغدت أشبه بنسيج عنكبوت، وعندما رأت الكتلة الرئيسية من السكوتلنديين هذا، وكانت تقاتل في قطاع آخر بشجاعة، فقدت

إقدامها، وتراجعت هي أيضاً، وعندما رأت فرقة الملك داود هذا، بدأت أيضاً بالفرار، أولاً على شكل أفراد ثم بشكل جماعي، مع أن عساكرها كانوا نخبة اختارهم الملك من مختلف القبائل، واستمر الحال هكذا حتى وقف الملك لوحده ولم يبق معه أحد تقريباً، وبناء عليه أرغمه رفاقه على امتطاء ظهر جواده والنجاة بنفسه، لكن ابنه هنري الشجاع لم يبال بما كان يفعله بني قومه، وظل متمسكاً بالرغبة في متابعة القتال ونيل الفخار، فترك الذين يفرون وشأنهم، وقام بحملة شديدة على صفوف الأعداء، وتألفت القوات التي كانت تحت امرته من انكليز ونورمانديين ارتبطوا ببيت أبيه، واحتفظوا بخيولهم، لكن هذه الفرقة من الخيالة لم تستطع أن تزلزل الرجال الذين غطتهم سوابغهم ودروعهم وقاتلوا على أقدامهم متراصين، وهكذا أرغم هؤلاء على التراجع بخيول معقورة، ورماح محطمة، وذلك بعد حملة رائعة، لكن غير موفقة.

ويقال سقط على أرض المعركة أحد عشر ألفاً من السكوتلنديين، وذلك بالاضافة إلى الذين عثر عليهم في الأحراش وحقول القمح وقتلوا هناك، ونال جيشنا النصر بعد هدر قليل من الدماء، وكان قادته هم:

وليم كونت أوميل Aumale ، ووليم بيفيريل peverel ، أوف نوتنغهام Nottingham ، وولتر اسبك Espec ،وغلبرت دي لاسي Lacy ، الذي كان أخوه الفارس الوحيد الذي قتل، وعندما نقلت أخبار المعركة إلى الملك ستيفن، قدم هو وجميع الذين كانوا معه الشكر إلى الرب القدير، وقد وقعت هذه المعركة في شهر آب(١٢).

وخلال حلول الآحاد الأربعة التي تقدمت على عيد الميلاد، عقد المندوب البابوي وهو أسقف أوستيا ostia مجمعاً دينياً في لندن، تمّ خلاله رسم ثيوبولد راعي دير بك Bec رئيساً لأساقفة كانتربري، وذلك بموافقة من الملك ستيفن.

سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة من حكمه، وبعد مضي عيد الميلاد، حاصر الملك ستيفن قلعة ليدز واستولى عليها، وقصد بعد هذا اسكوتلندا، فدخلها، وبوساطة السيف والنار أرغم ملك السكوتلنديين على طلب الصلح، وجلب إلى انكلترا هنري ابن الملك داود، ثم حاصر ستيفن لودلو Lud-low ، التي كان هنري خطف إليها من على ظهر حصانه بوساطة كلاب حديدي، فكاد أن يقع أسيراً، لكنه أنقذ من أيدي الأعداء بشجاعة من قبل الملك ستيفن.

وترك الملك ستيفن لودلو Ludlowدون الاستيلاء عليها وذهب إلى أكسفورد حيث اقترف عملاً دنيئاً جداً، تخطى به كلّ ماتقدم،فبعدما استقبل بحفاوة وود روجر أسقف سالسبري مع ابن أخيه الاسكندر أسقف لنكولن Lincoln ، قام هذا الملك باعتقاله بكل عنف في قصره، مع أنهالم يرفضا شيئاً من مطالب العدالة، وطالبا بكل اخلاص بذلك، وألقى الملك بالأسقف الاسكندر بالسجن، وأخذ معه أسقف سالسبري إلى دفزس Devizes التي كانت قلعة هذا الأسقف، والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر باجاعته، وأهان ابنه الذي كان حاجب الملك ومستشاره بربط حبل حول عنقه وجره إلى قفص جعله زنزانة له، وحصل منه بهذه الطريقة على الموافقة على تسليم القلعة، ناسياً جميع الخدمات التي قدمها له الأسقف أكثر من سواه، ولاسيما الخدمات التي بذلها له في بداية حكمه، فعلى هذه الصورة جازى الأسقف على اخلاصه.

وبطريقة مشابهة استولى الملك على قلعة شيربورن Sherborne التي كانت أدنى قليلاً من قلعة دفزس، وبعدما حصل على أموال الأسقف، استخدم هذه الأموال في سبيل تأمين زواج لابنه يوستاس من كونستانس أخت لويس الملك الفرنسي، ثم أعاد الملك ستيفن معه إلى نيوآرك Newark الاسكندر أسقف لنكولن الذي كان قد ألقاه من قبل في سجن في اكسفورد، وكان هذا الأسقف قد شيد في نيوآرك قلعة حمراء كأنها وردة بطراز عمارتها وهندستها، وكان منظرها جذاباً وسط المروج، ويمر بقربها نهر ترنت Trent ، وما ان شاهد الملك هذه القلعة ووقع نظره عليها حتى فرض على الأسقف صوماً لم ترخص به الكنيسة، وأقسم أنه سيظل محروماً من الطعام حتي يستجيب إلى تسليمه القلعة، وقد واجه الأسقف بعض المصاعب في اقناع حامية قلعته، وبالدموع والرجاء الحار استجابوا إلى التنازل عن القلعة إلى الغرباء، وكان هناك قلعة أخرى من قلاعه اسمها سلي فورد Sleaford ، لم تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها بطريقة مشابهة.

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قام هنري أسقف ونشستر، وأخو الملك، ونائب البابا بعقد مجمع ديني في ونشستر، وقد شاركه ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري وجميع الأساقفة الحضور بالطلب من الملك، وهم جاثين على ركبهم في أن يقوم برد ممتلكات الأساقفة الذين ورد ذكرهم أعلاه، مع تفاهم ضمني أنهم سوف يتغاضون عن الاهانات التي تعرضوا لها، ومهما يكن من أمر، لم يتحرك الملك ليتجاوب مع طلبات هذا الجمع المتميز، وأخذ برأي شرير واتبعه فرفض الاستجابة لهذا المطلب.

وهيأ هذا السبيل إلى الدمار النهائي لبيت ستيفن، ذلك أن الامبراطورة، ابنة الملك هنري المتوفى، والتي كانت قد تلقت عهد تبعية

الـولاء من الانكليـز، جـاءت على الفـور إلى انكلترا، وجـرى استقبـالها في قلعـة آرونـدل Arundel وحـوصرت الامبراطـورة هنـــــاك من قبل الملك، الـذي إمـا أنـه أصغـى إلى مشـورة غير مخلصـة، أو انـه وجـد أن القلعة قـوية جداً وانه لايستطيع الاستيـلاء عليها، لذلك أعطاهـا الأمان في أن تذهب إلى برستول.

وتـوفي في تلك السنـة نفسها روجـر، الأسقف الـذي تحدثت عنـه قبل قليل، وذلك بعدما أنهكته المشاكل مع ثقل السنين، وقد يدهش القارىء تجاه هذا التبـدل المفاجىء بالحظ بـالنسبة له، لأنـه منذ شبابـه والسعادة ترافقـه، إلى حد يمكن للمرء أن يقول فيـه، بأنها نسيت أن تقلب اتجاهها نحوه، فهو لم يواجه خلال حياتـه كلها أية حوادث معاكسة حتى تجمعت سحب التعاسة حـوله، وتمكنت من قهره في آخر المطـاف، لذا ينبغي على أي انسـان ألا يعتمد على استمـرار حسن الحظ، وألا يفترض أن السعـادة دائمة، وألا يظن أن بإمكانه الاستقرار طويلاً فوق دولابها المتحرك.

سنة أربعين ومائة وألف

وقام الملك ستيفن في السنـة الخامسة من حكمـــه بطرد نيغل Nigel أسقف إيـلاي Ely ، لأنـه كـان ابن أخ لأسقف سـالسبري المتـــوفى، والذي كان الملك يبغضه إلى حد أن غضبه شمل جميع أقربائه.

ولم يعد هاماً المكان الـذي أمضى فيه الملك عيد الميلاد والفصح، لأن هذا كلـه جعل البلاط رائعاً، واختفت الشعارات الملكيـة التي ورثها من الخط الطويل لأسـلافه، والخزانـة التي تسلمها مليئـة، باتت الآن فـارغة، وانعـــدم الأمن في المملكـــة، وانتشرت أعمال القتل، والاحـــراق، والنهب والـدماء خـلال الديـار، وارتفعت صرخات اليأس، والـرعب، والأسى في

كلّ مكان.

سنة إحدى وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السادسة من حكمه، قام الملك ستيفن بعد عيد الميلاد بإلقاء الحصار على قلعة لنكولن، وكان المدافع عنها رانولف Rannulf إيرل تشستر، الذي استولى عليها بالخدعة، وبقي الملك هناك حتى الثاني من شباط، ثم اجتمع الايرل مع روبرت صاحب غلوستر، وكان ختن الايرل وابن الملك الملك هنري، وانضم إليهما عدد من النبلاء الأقوياء، وقرروا رفع الحصار، وعبر الايرل الجريء سبخة كانت صعبة جداً، وصف عساكره واستعد للاشتباك بالقتال في اليوم نفسه، وتشكل الصف الأول منه ومن رجاله، وكان قوام الصف الثاني الذين حرمهم الملك ستيفن من ميراثهم، وشكل روبرت ورجاله الصف الثالث، ووقف على الجناحين حشد من رجال ويلز الذين كانت شجاعتهم أعلى من تسليحهم.

وفي الوقت نفسه حضر الملك ستيفن وهو عظيم القلق، قداساً دينياً، وفي تلك الأثناء وبينما كان يضع الشمعة —وهي التقدمة الملكية المعتادة— في يدي الأسقف الاسكندر، انكسرت، وكانت هذه الحادثة علامة فأل سيء بالنسبة للملك، وانقطعت آنذاك السلاسل الحاملة للصندوق الحاوي لجسد الرب، وذلك أثناء قيام الأسقف بالقداس، ووقع الصندوق على المذبح، وعدّت هذه اشارة إلى أن ملك الملك سيلحقه الدمار، ومع ذلك انطلق بكل شجاعة، وصف قواته بعناية، ووقف شخصياً على قدميه، وترجل وقتها رجاله ورصوا صفوفهم من حوله، وصدرت الأوامر للأمراء بأن يشكلوا مع رجالهم صفين من

الخيالة، لكن قوات الخيالة كانت قليلة جداً، فقد جلب الأمراء المزيفون المرائون قوى قليلة معهم، لكن قوات الملك كانت كبيرة جداً، وقد رافق بعضها الراية الملكية، وبما أن الملك ستيفن لم يمتلك صوتاً موافقاً، فقد طلب من بلدوين فتزغلبرت، وكان رجلاً نبيلاً وفارساً شجاعاً، أن يخطب بالجيش، وقبل أن ينهي خطابه سمعت أصوات الأعداء، وصدحت الأبواق، وجعلت حوافر الخيول الأرض تهتز.

وبدأت المعركة، وانقض المحرومون من ميراثهم، والذين وقفوا في الساقة، على الفرقة الملكية التي كان فيها الايرل آلان كونت ميولان، وهيوج ايرل ايست أنغليا، والايرل سيمون، والايرل وارين Warenne ومع تلقى هؤلاء للصدمة تفرقوا في رمشة عين، فقتل بعضهم، ووقع بعضهم بالأسر، وفرّ بعضهم الآخر.

وهاجمت الفرقة التي كانت تحت إمرة الكونت صاحب أوميل Au-male ووليم صاحب يبرس Ypres ، الولزيين على الجناحين، وأرغمتهم على الفرار، لكن مالبثت هذه الفرقة أن هوجمت من قبل رجال ايرل تشستر، ومزقوا في لحظة مثل الآخرين، وهكذا فرّ جميع فرسان الملك وكذلك وليم صاحب يبرس، وكان رجلاً من فلاندرز، من أصل أرستقراطي وصاحب مكانة عالية، وبما أنه كان رجلاً خبيراً بالحرب، ورأى من غير الممكن له أن يساعد الملك، وفرّ عونه إلى وقت أفضل، وهكذا ترك الملك ستيفن واقفاً وحده على قدميه وسط أعدائه، وأحاط هؤلاء بالقوات الملكية وهاجموها من جميع الجهات، وكان الشرر يتطاير من السيوف لدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات الرعب يتردد صداها ويعود رجعها من التلال ومن أسوار المدينة، وهاجمت الخيالة الجيش الملكي فقتلت بعضه، وداست بعضه الآخر، ووقع بالأسر أعداد كبيرة.

ولم تكن هناك استراحة أو وقت لتنفس الصعداء، إلا حيث كان الملك

نفسه، الذي كان قوياً جداً، وكان صامداً، لأن أعداءه كانوا يخافون من شدة ضرباته، وعندما رأى ايرل تشستر هذا حسد الملك على صموده، وحمل عليه حملة منكرة ومعه الدارعين من رجاله، ثم إن قوة الملك أشعت بالفعل وهو يقاتل ببلطته حيث قتل بعض مهاجميه ومزق صفوف آخرين، ثم ارتفع صوت نادى: «على الجميع التوجه ضده، إنه ضد كلّ واحد»، وأخيراً تحطمت بلطة الملك من الضربات المتوالية، ثم سحب ستيفن سيفه، وكان سيفاً جديراً بذراع ملكي، وفعل أفاعيل مدهشة حتى انكسر، وعندما رأى وليم أوف كاهاغنس Cahagnes هذا، وكان فارساً شجاعاً، حمل على الملك وأمسكه بوساطة الخوذة، وصرخ: «إليّ كلّ واحد، إليّ هنا، لقد أمسكت بالملك»، واندفع الجميع نحوه، ووقع الملك بالأسر، كما جرى أسر بلدوين الذي تولى مخاطبة الجنود، وكان قد أصيب بجراح كبيرة، وقد نال من مقاومته مجداً سرمدياً، ووقع رتشارد فتز أورس Fitz Urse أيضاً بالأسر، ونال هو فخاراً عظيماً أثناء القتال.

وتابع جيش الملك القتال حتى وقع بالأسر، وجرى تطويق هذا الجيش، وهكذا لم يستطع رجاله الفرار، فكان إما أن قتلوا أو أسروا، وأبيحت المدينة للناهبين، واقتيد الملك بشكل تعيس إليها.

وهكذا جرى حكم الرب على الملك ستيفن، وقد اقتيد أمام الامبراطورة ماتيلدا، وسجن في قلعة برستول، وعدّ الانكليز الامبراطورة سيدتهم باستثناء كنت، حيث قاتلت الملكة ضدها ومعها وليم أوف يبرس، وذلك بكل ماأوتيا من قوة، وقد اعترف بها في البداية أسقف ونشستر، ثم النائب البابوي، ثم مالبث أن اعترف بها اللندنيون، غير أنها امتلأت بغرور عظيم لأن أتباعها نجحوا نجاحاً عظيماً في حرب لم تكن نتائجها مؤكدة، ولهذا السبب جعلت كلّ واحد يبتعد عنها، وهكذا طردت من لندن إما بسبب خياني أو لحكمة ربانية (لأن كلّ مايفعله

الناس هو بإرادة الرب)، وبناء عليه قامت وهي تحمل حقد المرأة، فوضعت الملك ستيفن —وهو الملك المرسوم بإرادة الرب— بالأغلال.

وقامت ماتيلدا بعد وقت قصير ومعها خالها ملك السكوتلنديين وأخيها روبرت أوف غلوستر بحشد قواتها، وحاصرت قلعة أسقف ونشستر، وبعث الأسقف خلف الملكة ووليم أوف يبرس مع غالبية بارونات انكلترا، وحشد الطرفان جيشان كبيران، وكان هناك قتال في كلّ يوم، لكن لم تحدث معارك عظيمة واقتصر الأمر على المناوشات، وسجلت خلال هذه الاشتباكات أعمال شجاعة، ومع أنهم كانوا أشبه بالعميان في الحرب، كان من الممكن رؤية شجاعة كلّ واحد مع تقدير أعماله المجيدة، وهكذا كانت هذه الفرصة وقتاً ممتعاً لكل انسان يحكم انه كان من الممكن رؤية أفعالهم الرائعة.

وبعد انتظار طويل وصل جيش اللندنيين، ولأنه زاد من تعداد أعداء الامبراطورة، قضي عليها بالفرار، ووقع بالأسر عدد كبير أثناء الفرار، كان بينهم أخوها روبرت، الذي كان الملك مسجوناً في قلعته، والذي مكن أسره الملك من التبادل به، وهكذا حدث أن الملك الذي وقع بالأسر بحكم رباني، نال حريته برحمة من الرب، وقد استقبله بارونات انكلترا بفرح عظيم.

سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السابعة من حكمه، حاصر الملك الامبراطورة ماتيلدا في اكسفورد من عيد القديس ميكائيل [٢٩-أيلول] حتى حلول الميلاد، وقبيل حلول الميلاد بوقت وجيز هربت الامبراطورة عبر نهر التيميز المتجمد، وهي متدثرة بثياب بيضاء، فخدعت المحاضرين بظهورها

وكأنها شبح من الثلج، ولقد فرت إلى قلعة وولنغ فورد Wallingford واستسلمت أكسفورد إلى الملك.

سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة من حكمه، حضر الملك ستيفن المجمع الديني الذي عقد في لندن في منتصف الصيام وقد عقده نائب البابا، الأسقف هنري أوف ونشستر من أجل الأوضاع المتردية جداً التي وضع فيها رجال الدين، حيث أن الاحترام لم يقدم لهم ولا إلى كنيسة الرب المقدسة من قبل الغزاة، وأودع رجال الدين السجون، واتخذوا رهائن مثلهم في ذلك مثل المدنيين، وبناء عليه قرر المجمع أن كلّ من يتعرض بالأذى إلى رجال الدين يحرم ويطرد من الكنيسة ولايمكن تحليله إلا بوساطة البابا شخصياً، لكن هذا القرار لم يخفف الأذى عنهم بالفعل إلا قليلاً جداً.

واعتقل الملك في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل Mandeville ، في البلاط الملكي في سانت ألبان، بتهمة استحق بها الايرل الاعتقال، وكانت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالة العامة، ولو لم يقدم الملك على هذه الخطوة لكان طرد من عرشه بوساطة مؤامرات الايرل ولكي يكسب الايرل غيوفري حريته تنازل عن قلعة لندن، وعن قلعة والدن Walden وقلعة بليشي Pleshey، وهكذا حرم من جميع ممتلكاته، ولذلك استولى على دير رامسي Ramsey ، وطرد الرهبان منه، وحصنه بمجموعة من اللصوص وبذلك حوّل بيت الرب إلى وكر للصوص، ولقد كان في حقيقة الأمر رجلاً عظيم الشجاعة، لكنه كان متصلباً وعنيداً في أعماله اللاربانية، متيقظاً تجاه الأعمال الدنيوية، ومهملاً للأعمال الروحانية.

سنة أربع وأربعين ومائة وألف

ألقى الملك ستيفن الحصار في السنة التاسعة من حكمه على قلعة لنكولن، وبينما كان يعد أعمال الحصار من أجل الهجوم على القلعة، التي استولى عنوة عليها رانولف ايرل تشستر، اختنق حوالي الثمانين من رجاله في الأنفاق، لذلك رفع الملك الحصار وتخلى عنه في حالة من الفوضى.

وسبب في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل الكثير من المتاعب للملك، وميز نفسه أكثر من الآخرين، وفي شهر آب أظهرت الحكمة الربانية عدالتها بشكل رائع، حيث واجه اثنان من النبلاء الذين حوّلوا الديرة إلى مواقع حصينة، وطردوا الرهبان، عقوبة مماثلة لأن ذنبهما كان نفسه، وكان روبرت مارميون Marmionأولهما، فقد كان قد اقترف هذا الجرم في كنيسة كوفنتري Coventry كما أن غيوفري دي ماندفيل كان قد اقترف الشيء نفسه —كما قلت— في دير رامسي، وفيما كان روبرت مامرميون متقدماً ضد أعدائه، قتل تحت أسوار الدير، وكان وحده الذي سقط، مع أنه كان محاطاً بقواته، وقد مات وهو محروم كنسياً، فخضع إلى الموت الأبدي، وبطريقة مماثلة جرى تمييز الايرل غيوفري بين أتباعه، وأطلق عليه سهم من قبل أحد الجنود الرجالة العاديين، ومع أنه جرح جراحة خفيفة فقد توفي خلال عدة أيام وهو محروم كنسياً، وكان هذا هو الحكم العادل للرب، دائم الذكرى خلال الأجيال، وعندما كان هذا الدير محولاً إلى حصن رشح الدم من جدران الكنيسة والأماكن المجاورة، شاهداً بذلك على الغضب الرباني، ومبشراً بدمار غير الربانيين، وقد شوهد هذا من قبل الكثيرين، وقد شاهدت ذلك أنا نفسي بعيني.

- ٤٥١ -

سنة خمس وأربعين ومائة وألف

وفي السنة العاشرة من حكم الملك ستيفن، كان هيوج بيغود Bigod أول من قام بالتحركات، وفي الصيف شرع الايرل روبرت مع كتلة أعداء الملك يعملون لبناء قلعة في فارنغدون Faringdon ، ولم يضع الملك الوقت، حيث جمع الجيوش وزحف إلى هناك على رأس حشد كبير ومرعب من اللندنيين، وبعد هجمات يومية على القلعة، وفيما كان الايرل روبرت مع حلفائه ينتظرون وصول قوات جديدة لم تكن بعيدة عن جيش الملك، جرى الاستيلاء على القلعة بعد سقوط كثير من القتلى.

سنة ست وأربعين ومائة وألف

وحشد الملك ستيفن في السنة الحادية عشرة من حكمه جيشاً عظيماً، وبنى وسائل حصار لاتقهر ضد قلعة والنغفورد، وكان رانولف ايرل تشستر، الذي انضم الآن إلى الجانب الملكي، حاضراً هناك مع قوة كبيرة، وحدث بعد هذا أنه عندما كان الايرل حاضراً بأمان في بلاط الملك في نورثأمبتون، ودون أن يخشى من أي سوء، اعتقل، وأودع في السجن حتى تنازل عن قلعة لنكولن الحصينة، الذي كان قد استولى عليها بطرق بارعة، كما تنازل عن القلاع الأخرى التي عادت بملكيتها له، وبعد هذا أطلق سراح هذا الايرل وسمح له بالذهاب إلى حيث أراد.

سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثانية عشرة من حكمه، لبس الملك ستيفن التاج أثناء عيد الميلاد في لنكولن، الأمرالذي لم يقدم عليه ملك قبله لأسباب غيبية، وأظهر هذا مدى تصميمه، وكيف أنه أعار قليلاً من الأهمية لمثل هذه الغيبيات، وبعد مغادرة الملك جاء ايرل تشستر إلى لنكولن مع قوة مسلحة لمهاجمة القلعة، لكن قائد قواته، وكان رجلاً عظيم الشجاعة والحظ، لاقى مصرعه عند مدخل الباب الشمالي للبلدة، ثم تبع ذلك أن فقد الايرل نفسه عدداً كبيراً من أتباعه، ولذلك أرغم على التراجع، وبناء عليه قدم سكان البلدة أثناء احتفالهم بنجاحهم في الدفاع شكراً خاصاً إلى العذراء المباركة حاميتهم والمدافعة عنهم.

وقام في أحد العنصرة لويس ملك فرنسا، وتيرى كونت فلاندرز، وكونت سانت جايل (صنجيل) مع حشد كبير من كلّ جزء من فرنسا، وعدد عظيم من الانكليز، بحمل شارة الصليب، والسفر نحو القدس، عازمين على طرد الكفار الذين استولوا على مدينة الرها(١٣).

سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

محقت في هذه السنة جيوش امبراطور ألمانيا وملك فرنسا، مع أنها قيدت من قبل قادة لامعين، وبدأت زحفها بفخار وثقة، لكن الرب ازدراهم، وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى عليين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكلّ نوع من أنواع الآثام، وعانوا في البداية من

المجاعة بسبب الارشاد الفاسد لامبراطور القسطنطينية، وتعرضوا بعد هذا للدمار بسيوف الأعداء، والتجأ الملك لويس والامبراطور إلى أنطاكية، ورغبوا بعد هذا وهم في القدس مع بقايا أتباعهم بالقيام بعمل مفيد، وأراد ملك فرنسا، في أن يفعل شيئاً ما يرد إليه احترامه، فألقى الحصار على دمشق وذلك بمساعدة من فرسان داوية القدس مع قوة حشدت من جميع الأرجاء، لكن كان يعوزه رضا الرب، ولهذا لم ينل النجاح، فعاد إلى فرنسا.

سنة تسع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة عشرة من حكم الملك ستيفن رسم داود ملك السكوتلنديين هنري ابن بنت أخته فارساً، واجتمعت بهذه المناسبة قوة كبيرة، وامتلك داود حاشية واسعة، وكان لدى ابن أخته أتباعه من نبلاء غربي انكلترا، وشعر الملك ستيفن بالخوف، وخشي من أن يأخذوا طريقهم إلى مهاجمة يورك، ولهذا تمركز شخصياً في تلك المدينة ومعه جيش كبير، وبقي هناك جميع أيام شهر آب، وقام في تلك الأثناء يوستاس بن ستيفن، الذي رسم أيضاً فارساً في العام نفسه، بغزو بلدان البارونات الذين كانوا حضوراً مع هنري ابن الامبراطورة، وحيث لم يجد من يعترض سبيله عاث في البلاد بالسيف والنار، غير أن ملكي انكلترا و اسكوتلندا، وكان أولهما في يورك وثانيهما في كارل آيل، خشيا من بعضهما بعضاً، فتجنبا المواجهة واللقاء، وهكذا انفصلا بسلام، وعاد كلّ منهما إلى بلده.

سنة خمسين ومائة وألف

وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه، هاجم الملك ستيفن مدينة وورستر الجميلة، وبعدما استولى عليها جعلها طعمة للنيران، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على القلعة التي كانت داخل المدينة، وكانت ملكيتها عائدة إلى وولران Waleran كونت ميولان Meulan ، وكان الملك ستيفن قد منحه إياها، وكانت هذه المنحة لغير صالحه، وبعدما أكمل الجيش الملكي نهب المدينة، عاث فساداً بالمناطق العائدة للأمراء المعادين، وحيث لم يقاومهم أحد، حملوا كميات هائلة من الغنائم والأسلاب.

سنة إحدى وخمسين ومائة وألف

وتوفي في هذه السنة غيوفري الجميل، كونت أنجو، صهر الملك هنري الأول، وابن فولك ملك القدس، وهو نفسه كان رجلاً عالي المكانة.

ونالت وفاة غيوفري عناية أكثر اشراقاً من قبل جون مارموتيير Marmoutier

وحدث أنه عندما كان في الحادية والأربعين من عمره، وفي اليوم السابع من أيلول لسنة إحدى وخمسين ومائة وألف، واجه الدوق المنتصر لكل من نورماندي، ولشعب أنجو، وتورين، ومين، وهو عائد من اجتماع ملكي، مرضاً شديداً، وأصيب بالحمى في شاتودولور، وسقط على فراشه، ثم نظر نحو مستقبل بلاده وشعبه بروح تتطلع إلى ماسيكون، فحظر على

ابنه هنـري أن يدخل عادات نـورمانـدي أو انكلترا إلى بلاده، أو أن يفعل العكس، حسبما يمكن أن يحدث تبعاً لتعاقب تبدلات الحظ.

ثم بعـدما قـام بإعطـاء بعض المنح، والأعطيـات والحسنات، ظهـرت علامـات موت هذا الأمير العظيم من خـلال أحد المذنبات، فـرد جسده روحه ورفعهـا من الأرض إلى السماء، فهل كان عجيباً لـو أن الموت الذي يعارض الطبيعـة ويجردها صارع من أجل غيـوفري منذ شبابـه، حيث أنه كما يقول شيشرون:

«غالبـاً مايبـدو موت الشباب مثل إطفـاء نار متقـدة عظيمة بكثير من الماء، ومثل تفـاحة غير نـاضجـة قطعت قسراً من الشجرة، ومع هـذا إنها تسقط وكأنها نـاضجة وجـاهزة، وهكـذا تنتزع القـوة الحياة من الشبـاب، وبأخذها النضج من المسنين».

ودفن غيوفـري في الكنيسة العظيمة القداسـة المكرسة للقديس يـوليان في لامانس، في ضريح عظيم جـداً، بناه بشكل لائق الأسقف التقي وليم أوف بيوس فيم، وجرى صنع تابوت يشبه الكونت المحترم هناك، وقد تم ترصيعـه بشكل مناسب بالـذهب والأحجار الكريمـة، وجاء هذا مـذكراً بـالموت للمتعجرف وبـالنعمة للمتـواضع، وجـرى تعيين قسيس من قبل الأسقف، ليبقى دوماً إلى جـانب مذبح الصلب حيث مدد جسـد الرجل المتـوفى، وفرض لهذا القسيس عطـاء دائم، وكـان عليـه أن يقدم كلّ يـوم أضحية إلى الرب من أجل الكونت، حتـى يتفضل الرب المقدس والرحيم فينـزل رحمة يزيل بها تعـاسة الكـونت، ذلك أنه الـرب الذي يعيش أبـداً ويحكم دوماً.

قام هنـري أوف هتنغدون بعقلانية بتمجيـد اتخاذ ستيفن هنري أوف أنجـو ودوق نورمـاندي خليفـة له وذلـك على الرغم من عـدم محبته لـه —ستيفن— وميله إليه.

سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف

ترك غيوفري لابنه هنري أوف أنجو ونورماندي ادعاء الحق بوراثة عرش انكلترا، الأمر الذي لم يفلح به شخصياً، وحدث الآن أن انفصل لويس السابع ملك فرنسا عن زوجته، ابنة كونت بواتو على أساس القرابة المحرمة، وإثر هذا تزوجها الدوق الجديد هنري، ومن خلالها استولى على بلاد بواتو، وزاد من مكانته وعلوه كثيراً (١٤)، وكان هذا الزواج السبب في اثارة كراهية عظيمة وخلاف بين ملك فرنسا والدوق.

وقام الآن يوستاس ابن الملك ستيفن مع ملك فرنسا بحملات على نورماندي، وقاومهما الدوق بكل شجاعة وردهما مع الجيش الفرنسي، ثم حشد الملك لويس جميع خصومه، وهاجم قلعة منيعة الجانب، كانت لاترام وكان اسمها نوف مارشي Neufmarche واستولى عليها، وأعطاها إلى يوستاس ابن ملك انكلترا، الذي زوجه من ابنته.

واقترح الملك ستيفن في السنة السابعة عشرة من حكمه تتويج ابنه يوستاس، وطلب من رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين الذين جمعهم القيام برسم —يوستاس— ومباركته، فقوبل طلبه بالرفض، لأن البابا حظر برسائله رئيس الأساقفه ومنعه من تتويج ابن الملك لأن الملك ستيفن كان بالنسبة له قد استولى على العرش بشكل غير شرعي، وانزعج كلّ من الأب والابن من هذا، وغضبا غضباً عظيماً، فأمرا بسجن رجال الكنيسة في أحد البيوت وحاولا بالتهديد ارغامهم على أن يفعلوا ماطلباه منهم، وقد خاف هؤلاء وارتعبوا لأن الملك ستيفن لم يحب رجال الدين مطلقاً، وسلف له أن تولى سجن اثنين من الأساقفة، ومع هذا صمدوا على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونما

ايذاء، مع أنهم جردوا من مقتنياتهم، التي أعادها الملك إليهم فيما بعد، عندما تاب.

وحاصر الملك في السنة نفسها قلعة نيوبري Newbury ، التي لم تكن بعيدة عن ونشستر، واستولى عليها، ومن هناك تولى حصار وولنغفورد، وبنى قلعة حصار على مدخل الجسر، فحال بذلك دون الوصول إلى المحاصرين ودون ايصال المؤن إليهم، وعندما ضغط على هؤلاء بشدة، طلبوا من مولاهم، دوق نورماندي، إما أن يرسل المساعدات إليهم، أو منحهم الاذن بتسليم القلعة إلى الملك.

سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة عشرة من حكم الملك ستيفن، أرغمت الضرورة هنري صاحب أنجو ودوق نورماندي على القيام بزيارة غير متوقعة إلى انكلترا، وبوصوله بدت هذه البلاد التعيسة، والتي عانت من قبل من العيث والفساد، وكأنها تكسب حياة جديدة.

وعندما وطأ الدوق العظيم شواطىء انكلترا، امتلأت الأرض بالأخبار، مثل حقل قصب حركته الرياح، وانتشرت الأخبار بسرعة، وكما هي العادة جلبت الفرح والسعادة إلى بعض الناس والخوف والأسف إلى آخرين، لكن الذين اعتراهم السرور لدى سماعهم خبر وصوله، انزعجوا قليلاً لدى معرفتهم أنه جلب معه عدداً قليلاً من الرجال، وفي الوقت نفسه كان انزعاج أعدائه من أخبار وصوله ضعيفاً أيضاً، ورأى بعضهم أن عبوره للبحر الهائج في وسط الشتاء عمل شجاع، ووجد بعضهم أن ذلك كان حماقة، ولكن الشاب الشجاع حشد إليه جميع مؤيديه ومزجهم: هؤلاء الذين جلبهم مع الذين وجدهم، وبما أنه كان يكره

التأخير فوق كلّ شيء، ألقى الحصار على قلعة مالمزبري Malmes-bury.

وبما أن فضائل هذا الرجل كانت كثيرة وعظيمة، فإنني سأتولى معالجتها بسرعة حتى لاتطول حكاية أعماله وتأخذ حيزاً كبيراً، وحوصرت القلعة (لأنه كان رجلاً لايحب تأجيل الأعمال) وهوجمت، ومالبث أن استولى عليها، وعندما سقطت البلدة، قاوم الحصن الكبير، لصالح الملك، وتولى الدفاع فيه جوردان، وبات من الممكن السيطرة عليه بوساطة التجويع فقط، وخرج جوردان وذهب مسرعاً نحو الملك ستيفن ليخبره بما حدث، ولقد انزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار السيئة، واربد وجهه وعلاه الحزن بدلاً من مظهر الفخار والعظمة، وبادر بنشاط كبير فجمع قواته، وعسكر على مسافة لم تكن بعيدة عن مالمزبري.

واستعرض في اليوم التالي جيشه، الذي حوى عدداً كبيراً من الفرسان المتميزين الرائعين، وكان جيشاً لجبا فيه كثير من البارونات، وكانت راياتهم تلمع بالذهب، وكانت جميلة ومرعبة بالفعل، لكن الرب الذي عنده وحده ومعه الأمان والسلامة، لم يكن معهم، لأن بوابات الفيضان من السماء انفتحت، وجاء برد شديد وريح صرصر، وانهمرت الأمطار في وجوههم، حتى بدا كأن الرب نفسه كان يقاتل لصالح الدوق، غير أن الجيش زحف بانتظام، وكأنه يقاتل قدرات الرب وطاقاته، ولهذا عانى كثيراً.

واعتمد جيش الدوق الشاب على الشجاعة أكثر من اعتماده على الأعداد، خاصة وأن عدالة القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها قد ضمنت لهم أنهم مدعومين بنعمة الرب، وقد اصطفوا ليس بعيداً عن أسوار بلدة مالمزبري، على طرف نهر صغير، أعطته الأمطار الغزيرة والثلوج قوة أصبح بها مخيفاً إلى حد أنه ما إن يصبح الانسان هناك حتى يعجز عن الخروج.

وكـان الشـاب النبيل على رأس جيشـه، وكان جمالـه الجسـدي أخـاذ للنفس، وقد تميز بسلاح جدير به، وكـان مناسباً له إلى درجة يمكن القول فيهـا إن سلاحـه لم يمنحـه الشهرة بل هـو منح السـلاح شهرتـه، وجعل الكونت مع رجـاله السبخة وراء ظهـورهم، وكانت هذه السبخـة في وجه جيش الملك، ولذلك كـانوا لايستطيعون إلا بصعوبـة حمل أسلحتهم فوق رماحهم المبللة.

وبما أن الـرب عزم على أن ينـال طفله البـلاد من دون سفك للدمـاء، وألا يتمكن أيـاً من الفريقين من عبـور النهـر، ولأن الملك بات غير قـادر على تحمل المطر المنهمـر والفيضان النـاتج عنه، عـاد أدراجه نحـو لندن، وبـذلك باتت هـزيمته كـاملة، ولـذلك استسلمت القلعة المحـاصرة إلى الدوق، الـذي بادر مسروراً وبكل سرعة نحو انجـاز ماتوجب عليـه وجاء من أجله، أي التفريج عن قلعة والنغفورد التي كانت على حافة المجاعة.

وقد حشد كتلة كبيرة من العسـاكر ليحمل المؤن إلى الحامية المحاصرة، وسهل الرب نـواياه بشكل كبير، حيث حمل هـذه المؤن ووصل بها دون أن يلقى معارضة، مع أنه كان هنـاك الكثير من القلاع في تلك المنطقة كانت في أيـدي القوات الملكيـة، فمن خـلال عـون الـرب وارادته لم يستطيعـوا منعه من الـذهاب والإياب، وبعد مضي وقت قصير حشـد الدوق المقدام جميع الفـرسان الـذين وقفوا إلى جـانبـه وشرع في حصار قلعـة كرومـارش Crowmarsh ، وقد بـدأ هذه المهمـة المتعبة والصعبـة بحفر خنـدق حول كلّ مـن قلعة الملك وجيشه الخاص، وبـذلك بات طـريقه الـوحيد للخروج يمر عبر قلعة والنغفورد، بينما لم يبق للمحاصرين طريق للخروج.

وعندما سمع الملك بهذا جمع جميع القوات التي تـوفرت له من المناطق الخاضعة لـه، وانحدر غاضباً نحـو الدوق، الذي لم يكن خائفـاً أبداً، مع أن قواته كـانت أقل من قوات الملك، وقد أمـر على الفور أن يطم الخندق الـذي أمـر بحفره لحمايـة جيشـه، ورفع الحصـار، وزحف بشكل رائع

لمواجهة الملك، وعندما رأى الجيش الملكي المشهد غير المتوقع، وهو جيش عدوه، وقد اصطف للقتال واقفاً أمامه، استولى عليه الرعب فجأة، ولكن الملك لم يكن خائفاً أبداً، وأمر رجاله بالزحف إلى خارج المعسكر على شكل صفوف قتالية، لكن البارونات، أولئك الخونة لانكلترا، رفضوا هذا وعارضوه، ودعوا إلى التوصل إلى مصالحة، ومع أنهم لم يحبوا شيئاً أكثر من حبهم للتمزق، كانوا غير راغبين في انشاب القتال وحدوث معركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يربح أياً من الطرفين، لأنه إذا ما انهزم أحد الطرفين سيكون من السهل وقوعهم تحت سيطرة الطرف الآخر، لكن إذا ظلّ كلّ طرف يخشى الآخر، فإنه من غير الممكن ممارسة السلطة الملكية عليهم.

ولم يرغب الملك ولا الدوق في أن يرغما على اقامة هدنة، وقد أدرك كلّ منهما خيانة مسانديه، لكن كما هي العادة، كان الرب واقفاً إلى جانب الدوق، غير أنهم وافقوا على أنه ينبغي هدم القلعة الملكية التي حاصرها الدوق، وعقد الملك والدوق مؤتمراً منفرداً، عبر واحد من الأنهار الصغيرة، وتباحثا فيما بينهما حول السلام، واشتكى كلّ واحد منهما إلى الآخر من خيانة نبلائه، وهنا بدأت معاهدة السلام، ولكنها لم تكتمل حتى مناسبة أخرى.

ولم ينته صراعهما عندما عاد كلّ واحد منهما إلى مقره، لكن الضوء بدأ يبزغ حول حظ الدوق العظيم، حيث أن اثنين من أكبر أعدائه وأعظمهم قوة، وأعني بهما: يوستاس ابن الملك، وسيمون ايرل نورثأمبتون تمزقا وغابا بحكمة من الرب، واختفيا في الوقت نفسه، ونتيجة لهذا فقد جميع خصومه بشكل مفاجىء الأمل والشجاعة.

لقد ماتا كلاهما بالمرض نفسه في أسبوع واحد نفسه، ودفن الايرل سيمون، الذي فعل كلّ شيء غير شرعي أو خلقي، في نورثأمبتون، ودفن ابن الملك في دير أسسته أمه في فيفرشام Faversham ، وكان

فارساً مجرباً، لكنه كان رجلاً غير رباني عنيف جداً مع قادة الكنيسة، وكان مضطهدهم الثابت المصمم، وبازالة الرب لأعظم أعداء محبوبه هنري، مهد له بلطف السبيل إلى حكمه السلمي.

وتناول الحصار الثالث قلعة ستام فورد، وسقطت البلدة دونما تأخير، لكن حامية القلعة راسلت الملك طالبة المساعدة، وكان الملك يحاصر ابسوتش Ipswich ، التي كان يدافع عنها، ويقف ضده فيها هيو بيغود، وبما أن الملك لم يكن يرغب في رفع هذا الحصار، وبالتالي لايمكنه الذهاب لنجدة تلك الحامية، فقد استسلمت القلعة إلى الأمير هنري، وكذلك استسلمت القلعة التي كان يحاصرها الملك، وترك الدوق النورماندي ستام فورد وذهب إلى نوتنغهام، واستولى على البلدة على الفور، وقد أحرقت هذه البلدة إثر هذا من قبل حامية القلعة، ولحزنه على ماحدث أخذ الدوق جيشه إلى مكان آخر.

وكان في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ثيوبولد يبذل غاية جهده في سبيل إعداد اتفاق سلام، حيث ناقش هذا الأمر مراراً مع الملك، وعالجه مع الدوق عن طريق المبعوثين.

ورأى هنري أوف بليوس، رئيس أساقفة ونشستر، وهو الذي خبط المملكة بإعطاء أخيه ستيفن التاج، أن كلّ شيء قد دُمر بوساطة النار والقتل، وبعدما رأى هذا أسف لما حدث، وسعى نحو وضع نهاية لهذه الشرور بتمكين الأميرين من الاتفاق.

ووضعت حكمة الرب، التي خلقت كلاً من الخير والشر، نهاية لآلام انكلترا، وحققت الوصول إلى محصلة لما بدأ بجعل السلام مؤكداً على الطرفين، وأ ن ينتشر ذلك باخلاص.

ولكم كان السرور عظيماً، والبهجة كبيرة، أيها اليوم المبارك، الذي استقبل فيك الملك نفسه الأمير الشاب في ونشستر، في استعراض رائع

للأساقفة والنبلاء خلال أصوات تحيات الجماهير.

واستقبله الملك وكأنه ابنه المتبنى، واعترف به وريثاً له، ومن هناك أخذ الملك الدوق إلى لندن، حيث جرى استقباله بفرح عظيم من قبل الجماهير، وبمواكب رائعة لائقة برجل عظيم مثله، وهكذا بفضل من رحمة الرب بزغ فجر السلام على مملكة انكلترا المدمرة، ووضع نهاية لليلها المضطرب.

وبعدما انتهى هذا افترق الملك ستيفن عن ابنه الجديد بسرور ومحبة على أن يلتقيا ثانية في أقرب وقت، لأن السلام كان قد تأكد قبل عيد الميلاد.

سنة أربع وخمسين ومائة وألف

والتقيا ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني في أكسفورد، وذلك بعد مضي سنة أمضاها الدوق في الاستيلاء على انكلترا، أو بالحري في إعادة توحيدها، وقدم هناك جميع عظماء انكلترا —بناء على طلب من الملك— الولاء مع يمين التبعية إلى مولاهم الدوق، ولم يستثنوا سوى التمجيد والاخلاص اللذين هما من حقوق الملك طوال حياته، وتركوا جميعاً هذا الاجتماع الرائع وقد امتلأوا بالغبطة، وكانوا مسرورين بسبب السلام الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى التقيا ثانية في دنستيبل Dunstable ، حيث ظهرت بعض الغيوم المكدرة في الأفق، ولم يكن الدوق راضياً تجاه القلاع التي بنيت في كلّ مكان لأسباب شريرة بعد وفاة الملك هنري

الأول، والتي لم تهدم حسبما تم الاتفاق عليه في السلام الذي عقد أخيراً بينه شخصياً وبين الملك ستيفن، وكان عدد كبير منها قد هدم، باستثناء بعضها من خلال الملك ستيفن، فهو قد وفرها لبعض رجاله إما بنية سيئة أو عطفاً عليهم، وبدا هذا التصرف وكأنه يلغم المعاهدة، وتشكى الدوق حول هذا الأمر إلى الملك، لكنه دوفع، فتغاضى مكرهاً عن هذه القضية، وتخلى عنها لوالده الجديد، ذلك أنه خشي أن تفسد اتفاقهما، وقد افترقا متصادقين.

وبعد هذا بوقت قصير، عاد الدوق بإذن من الملك، منتصراً إلى نورماندي، فهذا ماكان هنري، أكثر الشباب شهرة، قد فعله في زيارته الثانية إلى انكلترا.

هذا وآمل ألا يصدر حكم ضدي لإقدامي على رواية أخبار العديد من أعماله الرائعة بشكل موجز ايجازاً شديداً، حيث يتوجب عليّ رواية أخبار العديد من الملوك مع أخبار أفعالهم عبر عدد كبير من القرون، ولاشك أن هذا عمل متعب سوف يحتاج إلى عدة مجلدات، وكانت فكرتي هي أن أقوم باختصار التاريخ في كتاب واحد، على أن لا أتجاهل تماماً ماسيكون في المستقبل.

ونعود الآن إلى العمل، فعندما عاد الدوق إلى فرنسا، استقبل استقبالاً كله سرور وتمجيد من قبل أمه ماتيلدا، مع اخوانه وجميع شعب نورماندي، وأنجو، ومين وبواتو، وكان الملك ستيفن الآن يحكم بسلام وذلك للمرة الأولى، وبفضل ابنه المتبنى نال التشريف اللائق بملك، لكن كم هم حمقى الناس الفانون، ولكم هي خطاياهم التي لاتنتهي! فقد حاول بعض الناس «الذين أسنانهم حراب ونشاب، وألسنتهم سيوف حادة» قدر استطاعتهم أن يروا عدم الوفاق بين الملك والدوق الغائب، ولم يكن باستطاعة الملك، أو لم يرغب في مقاومة ضغوطهم، وبعد وقت قصير اعتقد بعضهم انه توقف عن المقاومة، وصحيح انه

تظاهر بعدم الرضا، لقد كان بالواقع راغباً بالاصغاء إلى آرائهم الشريرة.

ومهما يكن من أمر، إن الرجال شيء، وحكم الرب شيء آخر، وهو الذي أنهى ماشرع به، بأن جعل نهاية مؤامرات ذوي الآراء الشريرة تصل إلى لاشيء، فقد حاصر الملك ستيفن قلعة دريك Drake قرب يورك، وبعدما هدمها واستولى على عدد آخر من القلاع ذهب إلى دوفر للتحادث مع كونت فلاندرز، ووقع أثناء المؤتمر مريضاً، وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول لعام ١١٥٤ فارق الحياة، ودفن في دير فيفرشام إلى جانب زوجته وولده، وقد حكم غير سعيد ومع متاعب شديدة لمدة تسع عشرة سنة.

وبسرعة أرسل رئيس الأساقفة ثيوبولد مع عدد كبير من النبلاء الانكليز رسائل لإخبار مولاهم دوق نورماندي حتى يحضر سريعاً ويتولى مقاليد المملكة، وقد تأخر بسبب الريح والبحر ولأسباب أخرى، غير أنه نزل إلى اليابسة قبيل حلول عيد الميلاد بعدة أيام في نيوفورست، ومعه زوجته واخوانه، والعديد من النبلاء وقوة كبيرة، ومكثت انكلترا بدون ملك لمدة ستة أسابيع، لكن بنعمة من الرب لم يضطرب الحال، إما بسبب حب ملك المستقبل أو خوفاً منه، وبعدما نزل هنري إلى اليابسة ذهب إلى لندن، وهناك بورك بشكل لائق ورائع جدير برجل له مكانة عالية، وحين نال المباركة كملك، تم ذلك وسط غبطة عظيمة، وصيحات كلها فرح وسرور، وجرى تتويجه بشكل رائع ومهيب.